لغز الأخرس



محمود سالم

لغز الأخرس

تأليف
محمود سالم



لغز الأخرس

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٠٣ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

في ليلة ممطرة

كان أول يوم من إجازة نصف السنة يبشر بطقس صحو ... فقد بكَّرت الشمس في اليقظة وبرَزت إلى العالم تنشُر الدفء ... ومعها استيقظت الطيور ... والزهور و«لوزة».

نزلت المُغامِرة الصغيرة إلى حديقة «الفيلا» تجري في مرح ... وكان أمامها ثلاث ساعات تقضيها وحدها قبل أن يصلَ بقيةُ المُغامِرين لعقد أول اجتماع لهم منذ فترة طويلة ... لم يكن الاجتماع لبحث لغزٍ أو مُتابعة شيء في مغامَرة ... إنما لوَضعِ خطَّة لقَضاء الإجازة.

لقد أدَّوا جميعًا واجبهم في أثناء النِّصف الأوَّل من العام الدراسي في عمل جاد متصل ... وأصبح من حقِّهم أن يرتاحوا وأن يسافروا إذا تمكنوا؛ فقد وافقت أُسَرهم جميعًا على إعطائهم حرية قضاء الإجازة كما يحبون.

بعد أن قضت «لوزة» نحو نصف ساعة شعرت بالجوع، فأسرعَت عائدةً إلى «الفيلا»، وجلسَت تتناول إفطارها ... ودخل عليها شقيقها «عاطف»، وهي في جلستِها فقال: صباح الخير ... هل سمعت آخر نكتة؟

رَدَّت «لوزة» في دهشة: صباح النور، لقد كنت معك حتى وقتِ النوم، وأنا أحفظ كلَّ النِّكات التي تعرفها ... فمن أين جئتَ بالنكتة الجديدة؟

عاطف: لقد حلمتُ بها!

وجلس «عاطف» يَلتهِم طبق المربى الصغير، وقال: اسمَعي ... سقط بوَّاب عمارة ...

وقبل أن يُكمل جملته ظهر والدُه ووالدته فسكت، فقال والده بعد أن بادلهما تحية الصباح: نُكتة جديدة ... أم مغامرة جديدة؟

لم يردَّ «عاطف» فقد شعر بالخجل، ولكن «لوزة» قرَّرت أن تُحرجه، فقالت: نكتة جديدة!

ابتسم الوالد وقال: إذا كانت نُكتة «مُضحِكة» فسوف تَفتح شهيتنا للطعام!

قالت الأم باسمة: في هذه الحالة لا داعيَ للنكت ... وإلا قضيتُم على تموين البيت!

عاد الوالد يقول: احكِ يا «عاطف».

أحسَّ «عاطف» بالحرج، وقال: إنها ليست نكتة جيدة يا أبي.

الأب: لا بأس ... قلها وأمرنا إلى الله.

نظر «عاطف» إلى «لوزة» بضيق، فتظاهرت أنَّها مُنهمِكةٌ في تناول إفطارها؛ ورشف «عاطف» رشفةً من كوب الشاي، وقال: سقط بواب عمارة على السلم، وذهب للطبيب فكشَف عن إصاباته ثم كتَب له دواء وقال له: ادهن مكان الإصابة.

وسكت «عاطف» لحظات ثم قال: وذهب البواب فدهن سلَّم العمارة!

وانطلق الأب والأم يَضحكان بشدة ... واضطرَّت «لوزة» إلى الضحك هي الأخرى؛ فقد أعجبتها النكتة ... وانتهز «عاطف» هذا الانتصار، وقال لوالده قبل أن يكفَّ عن الضحك: بالمناسبة يا أبي ... لقد بدأت إجازة نصف السنة ... ونرجو أن تزيد من مصروفنا ... فقد نضطرُّ إلى رحلة قصيرة أو نزهة.

قال الأب وهو يُنهي ضحكته: لا مانع.

ومضى الإفطار في جو من المرح بعد نكتة «عاطف»، وعندما انتهى الجميع خرج «عاطف» و«لوزة» إلى الحديقة، فوجدا «نوسة» تجلس وحدها، وقد انهمكَتْ في قراءة صحف الصباح.

أسرعت «لوزة» إليها وقالت: أخبار جديدة؟

ردت «نوسة»: أي نوع من الأخبار يهمك؟

لوزة: وهل هذا سؤال ... ألغاز ... مغامَرات.

نوسة: لا أخبار ولا مغامرات ... سوى أنَّ هناك احتمالات سقوط مطر في المساء.

ووصل «تختخ» ومعه «محب» ... يتبعهما «زنجر»، وبدأ المغامرون الخمسة اجتماعهم.

قال «تختخ»: لقد سافر والدي ووالدتي إلى عمي لقضاء الإجازة في الأقصر، وقد ضَحَّيتُ بهذه الرحلة الممتعة من أجل البقاء معكم ... فماذا تقترحون لقضاء إجازة سعيدة؟

وارتفعت الأصوات باقتراحات كثيرة ... ولكن لم يستقر الرأي على أي اقتراح ... وفجأةً قالت «نوسة»: إنني لم أذهب إلى دار الخيَّالة منذ بداية العام الدراسي ... وقد قرأتُ في الصُّحف عن فيلم «رحلة في أعماق البحر» ... وهو من الأفلام ذات الطابع الثقافي التي تُعجبني ... وقد قررت أن أبدأ إجازتي بمشاهدة هذا الفيلم الليلة في حفلة السادسة مساء.

عاطف: ولماذا لا تدخلين حفلة الساعة الثالثة؟ فهذا أفضل لكِ!

نوسة: عندنا ضيوف مدعوون للغداء، ولا بد من بقائي، لأنَّ بينهم بعض صديقاتي في المدرسة.

تختخ: سأدخل معك السينما يا «نوسة»، ولنؤجل اجتماعاتنا حتى صباح الغد … وانفض اجتماع الأصدقاء بأسرع مما توقَّعَت «لوزة» التي بدت حزينة لأن الاجتماع انتهى بقرار سخيف هو دخول «السينما» … فقالت: إنني لن أدخل السينما، سأبقى في البيت.

ولم يُعلِّق أحد … غير أن «تختخ» ابتسم، وهو ينظر إلى «لوزة»؛ فقد كان دائمًا يُعْجَبُ بروحها المتوثِّبة ورغبتها الدائمة في الحركة.

وفي الخامسة كان «تختخ» و«نوسة» يأخذان طريقهما إلى محطة المعادي … حيث وقفا فترة في انتظار القطار العائد من حلوان إلى القاهرة … وفي السادسة إلا ربعًا كانا يقفان أمام دار السينما، وكالعادة اشترى «تختخ» كمية رهيبة من السميط والجبن لالتهامها في أثناء مُشاهدة الفيلم … وهذه عادة لم تكن «نوسة» تحبُّها … ولكن …

كان الفيلم خيَاليًّا عن مُغامرة في قاع الُمحيط، تقوم بها غَوَّاصة أبحاث وما تعرض له العُلماء والمهندسون في الغَوَّاصة من صنوف المتاعب بين أسماك البحر الغريبة، والانهيارات الأرضية في أعماق المحيط … ولعل المتاعب التي لاقاها رُكَّاب الغواصة لم تكن تزيد عن المتاعب التي لاقاها «تختخ» و«نوسة» … عندما خرجا من السينما، لقد كانت السماء تُمطِر بشدة، والنَّاسُ يَجرُون، كل واحد يبحث عن وسيلة توصله إلى منزله، السعداء ركبوا السيارات … وغيرهم جروا في كل اتجاه بحثًا عن سيارة أجرة.

وقف «تختخ» و«نوسة» بجوار السينما لعلَّ المطر يخفُّ قليلًا، ولكنَّ المطرَ كان يَزْدَادُ شِدَّة بين لحظة وأخرى، وبدأت المحلات تُغْلِق أبوابها، ولم يَعُد أمامهما إلا أن يُسْرِعَا بالجرْي إلى محطة باب اللوق ليستقلَّا القطار إلى المعادي، وبرغم أنهما حاوَلا على قدر الإمكان الاحتماء بمظلات المحلات التي مرَّا بها، فإنَّهما تعرَّضا كثيرًا لسيل المطر الُمتدفِّق … وتعرضا أكثر للانزلاق على الأرض الزلقة، وعندما وصلا إلى محطة باب اللوق كانت «نوسة» ترتجف من البلل، أمَّا «تختخ» فقد حمتْه سِمنتُه من الإحساس بالبرد.

واستقلا القطار إلى محطة المعادي، ولحُسنِ الحظ لم يكن مُزدحمًا، فجلَسا يتحدَّثان عن الفيلم، وعن هذه الليلة الباردة. ووصَلا إلى محطة المعادي، ونزَلا على الرَّصيف، وكانا يأمُلان ألا يكون المطر قد أغرق المعادي كما فعل بالقاهرة، ولكنَّهما فُوجئا بالمطر أشد، ووقفا تحت مظلَّة المحطة، وكلٌّ منهما يُفكر في الشوارع الخالية التي سيقطعها في الطريق إلى منزله تحت المطر.

وفجأةً شاهدت «لوزة» بجوار أحد مقاعد المحطة قدمًا صغيرة حافية تبرز وحدها، وأحسَّت برعدة تسري في بدنها ... مَنْ هذا النَّائم على الأرض تحت المقاعد؟ وأدارت وجهها، ولكن هذه القدم الوحيدة شدَّتْها مرة أخرى فأعادت النَّظر، وتأكَّدَت أنَّها قدم بشرية لولد أو فتاة في السابعة أو الثامنة من عمره ... وفكَّرت ... هل هو ميت؟

وهَزَّت «نوسة» كتف «تختخ» الذي كان ينظر إلى المطر مُفكِّرًا ... ثم أشارت إلى القدم الصغيرة الحافية ... وحدق «تختخ» حيث أشارت «نوسة» ثم اقترب من الكرسي، وثنى ركبتيه ونظر تحته ... ووجد عينَين صغيرتين تبرقان في الظلام! وظَلَّ «تختخ» لحظات ينظر إلى الجسد الصغير المُمدَّد على الأرض، ثم قال له: ماذا تفعل هنا؟

لم يردَّ الولد ذو الثياب المُهلهلة، بل جذب ساقه إلى صدره، وانكمَش مثل قط خائف.

فعاد «تختخ» يقول: مَنْ أنت؟ هل أنت من المعادي؟

ولم يردَّ الولد بل زاد انكِماشًا، ولاحظ «تختخ» أنَّ هناك عينَين أُخريَين بجوار الولد الصغير تَلمعان ... ثم سمع مواء قطة صغيرة فقال للولد: اخرج ... سأُعطيك قرشًا، ولكن للمرة الثالثة اشتد انكماش الولد، وازدادت دهشة «تختخ»، واستطاع «تختخ» أن يَلمح في عينيه نظرة رُعب وفزع، وهو يتمسَّك بالقطة الصغيرة التي بدت مثله نحيلة جائعة، لم يجد «تختخ» بدًّا من أن يمدَّ يده ليجذب ذراع الولد الصغير ... فقد أحسَّ برغبة شديدة في أن يَعْرِف ماذا يفعل في هذا المكان، ولماذا هو خائف هكذا؟!

وحاول الولد أن يُقاوم، ولكن ذراع «تختخ» القوية جذبتْه خارج مَكمنِه البارد.

ونظرت «نوسة» إلى الولد، وأفزعها هزاله الشديد ... وثيابه الممزَّقة التي كشفت عن عظامه الرقيقة ... وأحسَّت بأنها ستبكي ألَمًا له، ومَدَّت يدها بسرعة في كيس نقودها وأخرجت كل ما معها ومدَّت يدها به إلى الولد الصغير.

قال «تختخ»: شيءٌ مُدهشٌ! ماذا يفعل هذا المسكين في هذا المكان ... في مثل هذه الساعة ... في هذا المطر؟

والتفتَ إلى الولد الذي كان ما زال يُقاوم وقال له: لا تخف ... إنني صديقك وأحاول مساعدتك.

لم يردَّ الولد، ولكنه أخذ يُتابع حركات وجه «تختخ» ... وبدا عليه قدرٌ من الاطمئنان، وبخاصة عندما شاهد يد «نوسة» الممدودة إليه بالنقود.

قال «تختخ»: ما رأيكِ يا «نوسة»؟

نوسة: لا أدري ... لماذا لا يرد؟

نظر «تختخ» إلى الولد الصغير طويلًا ثم قال لـ «نوسة»: سنأخذُه معنا!

نوسة: إلى أين؟

تختخ: إنَّ والدي ووالدتي ليسا في المنزل … ولو كانا هنا لما تردَّدا في قبوله ضيفًا، هو وقطته الصغيرة علينا في هذه الليلة الباردة …

وأمسك «تختخ» بالولد في يده، وسحبه خلفه، واستسلم الطفل الخائف ليد «تختخ» الدَّافئة … ومضى خلفه وهو يحتضن قطته.

مشكلة الأخرس

أوصل «تختخ» «نوسة» إلى منزلها، واتفقا على اللقاء مع بقية المغامرين عنده في الصباح، ثم أسرع إلى منزله يجرُّ خلفه الولد النَّحيل الخائف، تحت سيل المطر الجارف.

وفتح «تختخ» باب «الفيلا»، ودخل وأضاء النور وألقى نظرة شاملة على ضيفه المتشرِّد وقطته الصغيرة، كان أسمر اللون، أسود الشعر ... واسع العينين تبرز عظامه من ثيابه الممزقة، ويبدو على وجهه رُعب غير مألوف ... وقال له تختخ: أنت لم تأكُل منذ فترة؟

لم يردَّ الولد، بل أخذ يُراقب وجه «تختخ»، وقال له «تختخ» وقد بدأ يَتضايق: لماذا لا تتحدث؟ إنني أُريد أن أعرف لماذا كنتَ تختبئ تحت المقعد الحجري في المحطة ... ولماذا أنت خائف هكذا؟! تكلَّم.

ولم يردَّ الولد ... وفجأةً أدرك «تختخ» أنَّ الولد أخرس ... وأصم ... وأنه يُراقب تعبيرات وجه «تختخ» ... ليفهم ما يُريد ...

وفكر «تختخ» قليلًا ثمَّ تذكَّر بعض معلومات عن كيفية التفاهُم بالإشارة كان قد قرأها، وحاول أن يُطَبِّقها مع الضيف الصغير، فأشار «تختخ» إلى فِمه ... ثم حَرَّك إصبعه يمينًا ويسارًا يُريد أن يقول للولد بلغة الخُرس إنه لم يأكل ... وأحنى الولد رأسه موافقًا.

أسرع به «تختخ» إلى الحمَّام ... وأدار صنبور الماء الساخن ثم أشار إليه أن يستحم حتى يُعِدَّ له بعض الطعام ... وأسرع «تختخ» إلى دولابه وأحضر بعض ملابسه ... وعاد إلى الحمَّام حيثُ كان الولد قد بدأ يَخلع أسماله البالية، ووضع الملابس أمامه وأشار إليه أن يلبسها.

وذهب «تختخ» إلى المطبخ، فأعَدَّ وجبة ساخنة من البيض والبسطرمة ... وطبقًا من الفول، وأخرج خبزًا وجبنًا وزيتونًا، ثم وضع إبريق الشاي على النار.

وغَيَّر «تختخ» ثيابه، ثم ذهب إلى الحمَّام ودَقَّ الباب، ثم دفعه ودخل ففاجَأه منظر مُضحِك ... الولد النحيل وقد غرق في ثيابه الواسعة، يقف ساكنًا في وسط الحمام بعد أن مسحَ البلاط ... وهو يُمسك بالقطة الصغيرة على صدره.

كان منظرُه يبعث على الحزن والضحك في الوقت نفسه ... واضطر «تختخ» إلى الابتسام ثم قاده مُسرعًا إلى المطبخ، ووضع أمامه الطعام، ولم يَنتظِر الولد دعوة بل انقضَّ على الأكل كالمجنون، وأخذ يلتهم كل شيء أمامه، ولا ينسى في الوقت نفسه أن يَضع لقطته الصغيرة ممَّا يأكلُه.

واستطاع «تختخ» أن يأكُل بضع لقيمات من الجبن والفول، وترك الباقي للولد الجائع الذي انهمك في الأكل كأنه لم يَذُق طعامًا منذ أسبوع.

وعندما انتهى المتشرِّد الصغير من طعامه ... جلس هادئًا، وقد بدَت على وجهه علامات الرِّضا ... واختفت من عينيه علامات الفزع ... وبدأ «تختخ» يُعِدُّ له كوب الشاي، ويستحضر في ذهنه ما يعرفه من إشارات للتفاهُم مع الأخرس الصغير.

ولكن عندما التفَتَ «تختخ» إليه وفي يده كوب الشاي كان في انتظاره مفاجأة: إنَّ الولد الصغير ... في ثياب «تختخ» الواسعة، كان قد أغمض عينَيه ونام وهو جالس على كرسيه ...

وحار «تختخ» لحظات ... ماذا يفعل؟ ثم تقدم من الولد الصغير وحمله بين يديه، وبدا له خفيفًا بدرجة غير عادية ... وصعد به السلم، وذهب إلى غرفة الضيوف، ووضعه في الفراش وغطَّاه ... وانسلَّت القطة الصغيرة تحت الأغطية، ونامت هي الأخرى، وهي تُرسل هريرها النَّاعم.

ذهب «تختخ» إلى غرفتِه يفكر ... هل هذا الولد أخرس فعلًا؟ أو أنه خائف فقط ... ومن أين جاء؟ ولماذا كان فزعًا، وكان يختفي تحت المقعد الحجري في محطة المعادي؟ وهل هو من المعادي، أو من خارجها؟ أهمُّ من هذا كله ... ماذا يفعل به غدًا؟

كانت السماء ما تزال تمطر ... وصوت المطر على نافذة غرفة «تختخ» يُشبه طبلًا خافتًا رتيبًا ... ظل «تختخ» يستمع إليه ... حتى استسلم للنوم.

في صباح اليوم التالي استيقظ «تختخ» على يد الشغالة «حسنة» التي قالت له بصوت فزع: هناك ولد غريب الشكل، وجدتُه يتجوَّل داخل البيت، ويُحاول الخروج وقد أمسكته!

فوجئ «تختخ» بما سمع أولًا ... ثم تذكر أحداث الليلة الماضية، وقال لها: ضعي له إفطارًا حتى أغتسل.

انصرفت «حسنة» وعلى وجهها علامات الدَّهشة والاستغراب ... وتمطَّى «تختخ» تحت الأغطية ... كان مستمتعًا بالدفء ... ولكنَّ أصوات المغامرين جاءت إليه صاخبة، وهم يقتربون من باب غرفته ... وعرف على الفور أنَّ «نوسة» أخبرت «محب» و«لوزة» و«عاطف» بما حدث بعد خروجهما من السينما وحكاية الولد المتشرِّد، وعرف أنه سيتعرض لفيض من الأسئلة.

وفتح «محب» الباب وهو يقول: صباح الخير ... ما هي الحكاية؟

قال «تختخ» وهو يتثاءب: ليست هناك حكاية حتى الآن.

قال «محب» مُبتسمًا: إذن فلنُحاول أن نجعلها حكاية بدلًا من هذا الكسل الذي نبدأ به إجازة نصف السنة.

وأسرع «تختخ» إلى الحمام، ثم عاد وغيَّر ملابسه، ولحق بالمغامرين في غرفة الطَّعام، حيثُ كان الولد الصغير ما زال يتناول إفطاره.

كانت أنظار المغامرين مُثبتة على وجه الولد الصغير ... وكل واحد منهم يُفكر في حكاية هذا الولد، وماذا يُمكن أن يكون خلفَه، وكان الولد في ملابس «تختخ» الواسعة جدًّا يبدو كأنه مُهرِّج صغير هرب من السيرك ... وأحسَّت «لوزة» أنه من المُمكن أن تُدبِّر له ملابس أكثر لياقة من ملابس شقيقها «عاطف» بعد إجراء بعض التعديلات عليها.

ولكن المهم في هذه اللحظة هو معرفة قصة هذا الولد ... كيف السبيل إلى هذا وهو أخرس وأطرش؟! ... ثمَّ قبل كل هذا ... ماذا يجب أن يفعلوه؟ إنَّ التقاط طفل من الطريق العام ليس مسألة سهلة ... وهكذا سأل «تختخ»: ماذا تَقترحون بالنسبة لهذا الولد؟

كان «محب» أوَّل من أجاب فقال: بالطبع لا بد أن نُبْلِغ الشرطة.

لوزة: تقصد الشاويش «علي»؟

محب: طبعًا ... نحن لا نعرف حكاية هذا الولد، ولعلَّ أسرته تبحث عنه الآن ... ولعل الشرطة تبحث عنه، ولا بد من إبلاغ الجهات المسئولة!

تختخ: لا بُدَّ فعلًا من إبلاغ الشاويش.

لوزة: ولماذا لا تُبلغ المفتش «سامي»؟

محب: الحكاية لا تستحق إبلاغ المفتِّش ... فسوف يكتب الشاويش محضرًا بالموضوع، ثم يتم تسليم الولد إما إلى أهله، أو إلى إحدى مؤسسات الأحداث.

لوزة: ما هي مؤسسات الأحداث هذه؟

محب: إنها دور مُعَدَّة لإيواء الأطفال الذين لا أهل لهم ... أو ممَّن يُدانون في القضايا، وهم أقل من السن القانونية.

انزعجت «لوزة» لفكرة تسليم هذا الطفل إلى مؤسسة تضمُّ المجرمين الأحداث ... فقد بدا لها بريئًا.

وعندما انتهى الطفل من طعامه، ومن إطعام قطته، ووقف في ثيابه المهدلة، قال «تختخ»: حتى الآن لم أستطع أن أتبادل معه كلمة واحدة، إنه فيما أظنُّ أخرس وأطرش، ولا أدري كيف نعرف سبب وجوده في محطة المعادي ليلًا مختبئًا تحت المقعد الحجري.

محب: لنبدأ من الجانب القانوني للموضوع ... أي إبلاغ الشاويش، وبالطبع لا بد أن تذهب أنت و«نوسة» لمقابلته.

لوزة: وحتى هذه الفترة سأقوم أنا و«عاطف» بإعداد ملابس مناسبة له ... بدلًا من هذه الملابس المُضحِكة.

ظلَّ «عاطف» طوال هذا الوقت صامتًا لا يتكلَّم ... فقد كان يُفكر أنَّ المغامرين الخمسة قد وضعوا أنفسهم في مشكلة لا داعي لها ... برغم ما كان يحسُّه من العطف ناحية الولد الصغير الذي كان واقفًا يُدير عينيه فيهم، وقد بدا عليه الاستِسلام.

انصرف «تختخ» و«نوسة» إلى الشاويش ... وأسرعت «لوزة» و«عاطف» إلى منزلهما لإحضار بعض الثياب ... وأخذ «محب» الولد الصغير من يده وجلسا في الحديقة والقطة الصغيرة بين ذراعي الولد يحتضنها في إعزاز ...

ولكن «زنجر» الذي كان حتى الآن بعيدًا عن المشكلة تنبَّه لما يحدث ... وتمطَّى في الكشك الصغير الذي ينام فيه، ثم خرج ينظر الشمس التي أشرقت بعد ليلة مُمطرة باردة ... واتجه في هدوءٍ إلى حيث كان يجلس «محب» والولد ... ولكنه على مبعدة شم رائحة القطة فوقف شعره، وأطلق نباحًا عاليًا ثم تقدَّم رافعًا رأسه ... وانكمشت القطة في صدر الولد الذي بدا مذعورًا أمام هجوم «زنجر» ... ولكن «محب» أسرع يتلقَّى «زنجر» صائحًا: لحظة واحدة يا «زنجر» ... إنها ضيفة.

كان «زنجر» مهتاجًا فأخذ ينبح في ضيق ... ولكن «محب» مدَّ يده يمسح رقبته في رقة، ويهمس في أذنه أن يهدأ، وأخيرًا هدأ «زنجر» وجلس بجوار مقعد «محب».

حاول «محب» أن يتحدَّث إلى الولد ... ولكن الولد ظلَّ ينظر إليه في صمت دون أن ينطق بكلمة واحدة ... وأخيرًا كف «محب» عن المحاولة خاصَّة عندما ظهرت «لوزة» و«عاطف» ... يحملان لفَّة بها بعض الثياب ... فأخذا الولد ودخلا إلى الفيلا ... وبقي «محب» وحده يفكر فيما وراء هذا الولد الصامت.

وفجأة بدأت الأحداث تتحرَّك ... فقد ظهر الشاويش «فرقع» عند باب الحديقة يصحبه «تختخ» و«نوسة».

صاح الشاويش: أين الولد؟

رد «تختخ»: إنه في الداخل.

الشاويش: كيف تركتَه يغيب عن عينيك؟

تختخ: وماذا في هذا يا شاويش؟

الشاويش: ألا يُمكن أن يكون لصًّا أو نشالًا؟! إنَّ هؤلاء الأولاد المتشرِّدين عادة من النَّشالين.

نظرت «نوسة» إلى «تختخ» الذي قال بهدوء: أليس من الأفضل أن تراه أولًا يا حضرة الشاويش، قبل أن توجه إليه هذا الاتهام الخطير؟!

محاولة للتفاهم

كان «محب» يتابع الحوار بين «تختخ» والشاويش، فلم يَلتفِت إلى الولد الذي لم يكد يرى الشاويش حتى وقف مُسرعًا، ثم جرى في اتجاه سور الحديقة ... كانت الحركة مفاجئة، حتى إنَّ الجميع وقفوا دون حراك، وقد استولت عليهم الدهشة والذهول.

وصَل الولد إلى السور، ثم تسلقه بمهارة ليست مُتوقَّعة ... ثم كاد يصل إلى أعلى السور عندما تعثَّر في ملابس «تختخ» الواسعة وسقط من فوق السور المرتفع على الأرض سقطة قوية ظن الجميع أنه لن يقوم منها.

كان أسرع الجميع وأقربهم «محب» الذي اندفع إلى الولد في اللحظة التي سقط فيها ... وانحنى عليه ... كان شاحب الوجه ... مُتسارع الأنفاس ... وقد أغمض عينيه وتوتَّرت مَلامِحُه ... وبدا كأنَّ السقطة قد قضت عليه.

حمله «محب» بين ذِرَاعيه ... والتفَّ الجميع حوله، وهو يُسرع به إلى الدور الثاني من «الفيلا»، حيثُ وضعه على الفراش ... وكان «تختخ» يتَّصل بالدكتور «رياض» الذي يَسكُن بجوارهم، ولحُسنِ الحظ كان الدكتور يَركب سيارته في طريقه إلى عمله، فوصل في دقائق قليلة ... ووقف الأصدقاء يرقبون الطبيب، وهو يكشف على الولد، ثم قال مبتسمًا: ليست هناك إصابات في العظام ... لقد أُغميَ عليه لأنه سقط على رأسه ... وسينام بعض الوقت ثم يَستيقظ على ما يُرَام، ثم كتب الطبيب روشتة ببعض الدَّواء وانصرف.

لم يكد «الدكتور» رياض يُغادر الغرفة حتى قال الشاويش: ألم أقل لكم؟! إنه لم يكَد يراني حتى حاول الفرار ... إنه نشَّال أو لص!

قاطعه «عاطف» في ضيق: وهل هذا وقت هذا الكلام يا شاويش ... ألا ترى الولد وما أصابه!

رد الشاويش بعنف: لا يُهمُّني ما أصابه ... لا بد من القبض عليه، واقتياده إلى القسم لاتخاذ الإجراءات.

لم يَشترِك «تختخ» في المناقشة، بل ذهب إلى التليفون، واتصل بالمفتش «سامي» ولحسن الحظ وجده في مكتبه. روى له كل ما حدث، وما ينوي الشاويش عمله، فطلب منه المفتش «سامي» استدعاء الشاويش ليُحدِّثه، ولم يكد الشاويش يسمع صوت المفتِّش حتى وقف وقفة عسكرية، واستمع بانتباه وهو يقول: طبعًا يا سيادة المفتِّش ... طبعًا ... سأنفذ التعليمات.

ثم أعطى السماعة لـ «تختخ» الذي تحدَّث مع المفتش لحظات ... ثم وضع السماعة وعاد إلى الغرفة.

قال «تختخ»: أرجو أن تذهب يا «محب» لإحضار الدواء، وسنترك الولد نائمًا ونخرج إلى الحديقة.

في الحديقة جلس الشاويش وقد هدأت أعصابه؛ فقال: إنَّ التعليمات تقضي بكتابة محضر بواقعة العثور على هذا الولد ونشْر صورتِه بالجرائد.

تختخ: عندما قابلناك في الطريق كنتُ ذاهبًا إليك من أجل هذا المحضَر.

الشاويش: على كل حالٍ مِن المُمكن كتابة هذا المحضر هنا، وأخْذ أوصاف هذا الولد، وستُذاع به نشرة على مختلف أقسام الشرطة، وستُنشَر صورتُه في الجرائد حتى يأتي أهله لتسلمه، مع البحث والتحري عنه.

تختخ: هذه إجراءات قانونية ولا اعتراض لنا عليها.

وجلس الشاويش يكتب ما أملاه عليه «تختخ»، ثم انصرف، على حين انهمكت «لوزة» و«نوسة» في إعداد ملابس مناسِبة للولد.

بدأت المناقشة بين المغامرين الخمسة بالسؤال الذي كان بأذهانهم جميعًا؛ وهو لماذا حاول الولد الفرار عندما رأى الشاويش «علي»؟!

وبالطبع لم يكن له إلا ردٌّ واحد ... إنه يخاف رجال الشرطة!

وكان السؤال التالي هو: ولماذا يخاف الشرطة؟

وبالطبع لم يكن هناك سوى إجابة واحدة: إنه ارتكب جرمًا يَخشى مُحاسبتَه عليه.

ومعنى ذلك كما قال «محب»: إننا نُؤوِي مُجرمًا صغيرًا.

قالت «لوزة» وهي تُحاول تمرير الخيط من ثقب الإبرة: هذا الولد الضعيف النحيف مُجرم؟ شيء غير معقول! إنَّ ملامحه تدلُّ على الوَداعة والطيبة.

ساد الصمت بعد ما قالته «لوزة» ... وانصرف كلٌّ واحد من المغامرين الخمسة إلى خواطره يُفكِّر في كل ما حدث ... ومضت فترة من الوقت عندما قام «زنجر» فجأة من مكانه، وقد وقف شعره، ثم اندفع إلى ناحية السور، وهو يَنبح بشدة، وتنبَّه «محب» على الفور وقال: إنها قطة الولد ... لقد أخذها معه عندما حاول الفرار ولكنها سقطت منه، واختبأت بين الأعشاب، ويبدو أنها تُحاول الخروج من مكمنها خلسة، ولكن «زنجر» تنبه لها.

كان «زنجر» يدور حول شجرة، ونظر «محب» إلى فوق فوجد القطة تقف مذعورة ... فمدَّ يده وأمسك بها من ظهرها خوفًا من أن تخمشه ... ثم عاد بها و«زنجر» يقفز حوله نابحًا، وعندما وصل «محب» إلى حيث جلس الأصدقاء، قالت «لوزة»: اصعد بها إلى الولد ... إنها ستأنس به، وإذا استيقظ ووجدها بجانبه فسيأنس بها.

صعد «مُحِبٌّ» بالقطة ... وبعد لحظات سمعه المغامرون يُنادي ... وأسرعوا إليه ... كان الولد قد استيقظ، وجلس في فراشه شاحبًا ينظر إليهم في خوف ورُعب، وابتسمت له «نوسة»، ولكن الولد ظل ينظر حوله، كأنه يبحث عن منفَذ للهرب منه، وقد احتضن قطته بشدة.

قال «تختخ» لقد وقعنا في مشكلة ... فهذا الولد مرعوبٌ منَّا ومِنَ الشُّرطة ... وهو لا يتكلم، ولا يسمع ... ولا ندري ماذا نفعل!

عاطف: لقد فعلنا ما بوسعنا ... ولعلَّ الشاويش عندما يُتمِّم الإعلان عنه يمكن أن يستدل على أهله.

محب: لا حل آخر!

نوسة: لماذا لا نُحاول أن نتفاهم معه بالإشارة؟

تختخ: إنَّ ذلك مُمكن في الأشياء البسيطة مثل الأكل، والشرب، والنوم ولكن كيف تسألينه لماذا هو خائف؟

فجأة قالت «لوزة»: لماذا لا نبحث عن أخرس آخر يتحدث معه؟

قال «عاطف» ضاحكًا: لقد حللتِ المشكلة الواحدة بمشكلتين ... وبدلًا من أن يكون عندنا أخرس واحد، سيكون عندنا أخرسان.

تختخ: إنَّ فكرة «لوزة» ممتازة، ويُمكن تعديلها بالبحث عن شخص يعرف إشارات الخرس، ويمكن أن يتفاهم معه.

عاطف: تقصد مترجمًا؟

تختخ: بالضبط ... مُترجم!

نوسة: هناك معهد للصمِّ والبُكم، ولكن كيف السبيل إلى إحضار شخص منه للحديث مع هذا الولد المسكين؟

تختخ: سنُحاول ... ولكن سننتظر أولًا جهود الشاويش «علي» لعل أحدًا من أهل الولد يظهر.

مضى اليوم والمغامرون الخمسة يحيطون الولد بِرِعَايتهم، وقام «محب» بتصويره، وفي اليوم التالي سلموا الصورة للشاويش ... وحتى يطمئنَّ «تختخ» إلى نشر الصورة ذهب إلى صديقه الصحفي «علاء»، رئيس قسم الحوادث في جريدة الجمهورية، وأعطاه الصورة، وفي اليوم الثالث للعثور على الولد الأخرس كانت صورته منشورة، وتحتها بعض أسطر عنه، وعن مكانه، وعن رقم تليفون منزل «تختخ».

جلس المغامرون الخمسة بجوار التليفون ينتظرون اتصال أحد من أهل الولد، ولكن التليفون ظل صامتًا طول النهار، وبدا أنَّ لُغز الولد الأخرس لن يُحلَّ إلَّا بشخص يمكنه الحديث معه.

وانصرف «محب» و«نوسة» و«عاطف» و«لوزة» في المساء يائسين ... وجلس «تختخ» وحده يُفكر في طريقة لإحضار شخص من معهد الصمِّ والبكم ... وفجأة ضرب جبهته بيده، لماذا لم يفكر في المفتش «سامي»؟ إنَّه بالطبع مُمكن أن يُحضِر مثل هذا الشخص ... وقام إلى التليفون ... ولكنه لم يكد يقترب من التليفون حتى دقَّ الجرس، ورفع «تختخ» السماعة وسمع صوت رجل يقول: منزل الأستاذ «خليل توفيق»؟

رد تختخ: نعم!

الرجل: إنني عمٌّ الولد الأخرس الذي نشرت صورته في الجرائد!

تختخ: أهلًا وسهلًا.

الرجل: هل يُمكنني الحضور لتسلمه الآن؟

فكَّر «تختخ» لحظات ثم قال: لا بدَّ من تسلمه في قسم الشرطة، لأنَّ هناك محضرًا بالعثور عليه.

الرجل: متى أحضر إذن؟

تختخ: في الصباح.

الرجل: هل أنتَ الأستاذ «خليل»؟

تختخ: لا ... إنني ابنه ...!

الرجل: أريد أن أتحدَّث مع والدك!

تختخ: إنَّ أبي مسافر.

الرَّجل: إذن سأَحضُر غدًا في العاشرة صباحًا.

تختخ: أهلًا وسهلًا.

ووضع «تختخ» السماعة وقلبُه يدقُّ بسرعة ... وأخيرًا حُلَّت المشكلة، وسيحضر من يتسلم الولد الصغير، وأسرع «تختخ» إلى غرفة الولد، وظهرت الشَّغالة «حسنة» وبيدها «كارت بوستال» أرسله والد «تختخ» ووالدته من الأقصر وقالت: لقد وصَل الكارت صباحًا ولكنِّي نسيتُ تسليمه لك.

أخذ «تختخ» الكارت معه وصعد إلى غرفة الولد، ودخل عليه وهو يبتسم، أخذ يُشير له قدر إمكانه أن هناك من سيَحضُر لأخذه ... وبدا على الولد أنه فهم قليلًا ... ولكنَّ عينَيه كانتا مُحدِّقتَين بالكارت الذي كان «تختخ» يُمسكه في يده ... ودهش «تختخ» ومدَّ يده له بالكارت ... وأمسك الولد به وانتابتْه نوبة من الارتعاد وهو يُشير بإصبعِه إلى صورة بعض الآثار في الأقصر ... كان الولد يَرتعِش، وإصبعه يهتز وهو يشير إلى الآثار ... ووقف «تختخ» في دهشة أمام هذا المشهد العجيب!

خطر في الليل

اقترب «تختخ» من الولد، وأخذ يُشير إلى الآثار وهو يفتح يديه في حركة سؤال عما يعنيه هذا بالنسبة له، وضع الولد الكارت أمامه، ثم أشار إليه، وأشار إلى صورةٍ بيده اليمنى … ثم وضع يده على الكارت، ثم أشار إلى نور الغُرفة وأبعد يديه … وأشار إلى ركن الغُرفة، وانكمَش في جلسته … ثمَّ أشار بإصبعِه إلى عينيه ومدَّ إصبعه إلى الأمام … وصنع خمس علامات في الهواء كما يكتب الشخص خمسة خطوط واقفة … وأشار إلى حائط الغرفة … وتردَّد لحظات ثمَّ قام من مكانه وقفز من الفراش، ورسم على الحائط ما يُشبه مُستطيلًا وأخذ يدق على حوافيه … ثم أعاد رسم إشارة الخمسة … وأشار إلى نفسه، وعاود الانكماش في جانب الغرفة … ثم لمعَت عيناه بنظرة خوف … ووضع يده على فمه … وأغمض عينيه …

وبدا واضحًا أن الولد مُرهَق جدًّا … وأنه يكاد يسقط … فأسرع إليه «تختخ» وحمله إلى الفراش ومدَّده وغطاه … فقد كان الجو شديد البرودة … ثم أشار له أن ينتظر حتى يحضر له كوبًا من اللبن، وأسرع ينزل إلى المطبخ، ووضع إناء اللبن على النار … ووقف بجوار موقد «البوتاجاز» يستذكر حركات الأخرس واحدة بعد الأخرى، محاولًا تفسيرها وهو مستغرق في التفكير حتى فار اللبن … ولم يتنبه «تختخ» إلا عندما سمع صوت السائل وهو يحترق … وأسرع يطفئ الموقد … ويبحث عن قطعة قماش يمسح بها ما سال من الإناء … فلم تكن الشغالة «حسنة» موجودة في البيت … لقد استأذنت أن تقضي الليلة عند أسرتها.

وأخذ «تختخ» كوب اللبن، وصعد السلالم ببطء، وعندما وصل إلى فراش الأخرس … وجده مُستغرقًا في النوم … وقد بدا وجهه شاحبًا تحت ضوء المصباح … فوضع كوب اللبن بجوار الفراش، وأطفأ النور وخرج وأغلق الباب.

ذهب «تختخ» إلى غرفته وخلع ثيابه، ولبس ملابس النوم ... كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل ... وتذكر أنه أغلق باب الكشك الصغير الذي ينام فيه «زنجر» حتى لا يفتك بالقطة الصغيرة ... إنه لا يرى القطة الآن ولا يعرف أين اختفت ... وفكَّر أن ينزل ليفتح لـ «زنجر» ... ولكنَّ البرد الشديد أغراه بأن يدخل تحت الأغطية ... وهو يُفكر في حركات الأخرس ... ومدَّ يده فتناول كراسة مذكراته، وكتب فيها حركات الأخرس، وما فهمه منها ثم تمدَّد أكثر ... واستسلم لدفء الفراش ونام.

لا يدري «تختخ» كم من الوقت مَرَّ وهو نائم ... ولكنه استيقظ بعد حلم مُضطرِب ... كانت الغرفة تسبح في الظلام ... وسمع صوت الريح والمطر في الخارج، وأدرك أنَّ هناك عاصفة شتوية تعبث بالأشجار ... وأخذ يتابع بأذنيه صوت العاصفة، وهو بين اليقظة والمنام ... وفجأة أحسَّ بتوتر غامض وانتقل إلى حالة اليقظة التامة، ففي وسط هدير العاصفة، وصوت الرِّيح، وإيقاع سقوط المطر ... سَمِعَ صوتًا لا يمتُّ إلى أصوات الطبيعة بصلة ... وأرهف السمع لحظات ... وتأكد من طبيعة الصوت أنه ليس صوت نزول المطر أو عصف الريح ... ونظر إلى ساعته ... كانت الثالثة بعد منتصف الليل.

وتسلَّل من فراشه مسرعًا ... وفتح الباب في هدوء وأصاخ السمع ... كان هناك صوت باب أو نافذة تُفتح في مكان ما من الفيلا ... وصوت نباح «زنجر» مكتومًا في الكشك ... وأدرك «تختخ» أن هناك من يتسلَّل إلى الفيلا ... مَن هو؟ لصٌّ يُحاول سرقة شيء؟ أم شخص له هدف آخر؟

أسرع «تختخ» يجري مُتجهًا إلى غُرفة الولد الأخرس ... كان يحسُّ أنه يتعرَّض لخطر ما.

كان «تختخ» يترك مصباحًا صغيرًا مضاء في وسط الفيلا، وعلى الضوء الخفيف اقترب من غرفة الولد ... وأحسَّ على الفور بلفحة هواء باردة تتسلل من أسفل الباب ... من المؤكد أنَّ نافذة مفتوحة في الفيلا يدخل منها هذا التيار، وقبل أن يصلَ إلى غرفة الولد الأخرس وهي تقع في نهاية الدهليز، سمع خطوات واضحة خلفه ... والتفت على الفور ووجد نفسه وجهًا لوجه مع رجل تبدو عليه الشراسة! وأدرك «تختخ» أنه صعد من السلم الداخلي، ورأى في يده مسدَّسًا مصوبًا إليه ... ولم يتردَّد «تختخ»، ضرب يد الرجل بكل ما يملك من قوة، فانطلقت رصاصة من المسدس ... وفي الوقت نفسه طوَّح «تختخ» بقدمه في ضربة قاسية في بطن الرجل فانحنى إلى الأمام وهو يئن ... فنزل عليه «تختخ» بضربة قوية بكلتا يدَيه على رقبته سقط على أثرها الرَّجل على الأرض ... وأسرع «تختخ» إلى غرفة الولد

الأخرس ... كان الباب مفتوحًا ... وعلى الضوء الخفيف شاهد «تختخ» رجلًا آخر يحمل لفَّة كبيرة ... وكان الفراش خاليًا، فأدرك على الفور أنَّ الأخرس الصغير في هذه اللفة.

ألقى الرجل بحمله على الفراش، ثم هجم على «تختخ» كالوحش ... كان أطول من الرجل الأول وأضخم ... وقفز «تختخ» إلى الفراش بسرعة مُحاولًا القفز بعد ذلك فوق الرجل، ولكن قدمه لم تصل إلى حافة الفراش بالضبط ... وأحسَّ بألم فظيع عندما ارتطمت ساقه بحافة السرير الخشبية ... وسقط على وجهه فوق الفراش ... وبسرعة ألقى الرجل بنفسه عليه واستطاع «تختخ» بمشقَّة أن يستدير بحيث يواجه الرجل بوجهه ... محاولًا منعه من الإطباق على رقبته ... واشتبكت الأيدي!

كانت ذراعا الرَّجل طويلتين ويداه كبيرتين ... وأصابعه كأنها من الحديد، وبرغم أنَّ «تختخ» استطاع أن يضربه بضع ضربات في وجهه إلا أنَّ الذراعَين القويتَين وصلتا إلى رقبة «تختخ» وبدأت الأصابع الحديدية تعتصرها.

وأحسَّ «تختخ» بالاختناق، وبأنَّ الدنيا تدور به ... وفي هذه اللحظة رأى الأخرس الصغير، وقد تخلَّص من اللفة، وهاجم الرجل من الخلف، برغم ضعفه الشديد حاول أن يمسك برقبة الرَّجل ويبعده عن «تختخ»، ولكنَّ الرجل استطاع بضربة واحدة من ذراعه أن يَطرح بالولد بعيدًا ... وخفَّت قبضة الرجل لحظة عن رقبة «تختخ» فصاح: يا ولد ... اهرب!

لقد نسيَ أنَّ الولد لن يسمعه ... ولكن كأنَّما فهم الأخرس الصغير ما يقصده «تختخ»؛ فقد أسرع يجري من الغرفة ... ولم يُضيِّع الرجل وقتًا أطول ... فقد هوى على رأس «تختخ» بضربة ساحقة ... وتلاشى وعي المُغامر وذهب في غيبوبة كاملة.

عندما استيقظ «تختخ» ... وجد نفسه مُلقًى على الفراش ... جسده هامد ... وفي رأسه ورقبته آلام عنيفة ... وأحس بالبرد القارس، وتذكر «تختخ» ما حدث وقاوَم تعبه وقام يترنح ... ولاحظ على الفور أن اللفة التي كان مربوطًا بها الأخرس ما زالت موجودة ... فهل استطاع الهرب ... أم قبَض عليه الرجلان؟

لم يُفكِّر «تختخ» طويلًا ... كان رأسه يؤلمه، ولم يكن يهمُّه في هذه اللحظة سوى إخراج «زنجر» ... ونزل إلى الدور الأرضي، وسار في اتجاه الريح الباردة القادمة من الخارج، ووجد أنها تأتي من نافذة غرفة المكتب.

ووجد «تختخ» أنَّ المجرمَين قد استطاعا الدخول عن طريق نزع أخشاب النافذة عند المقبض، وقطع الزجاج بواسطة مقطع ... وأسرع يغلق النافذة محاولًا بقدر الإمكان الإبقاء على بصمات الرجلين.

وفتح «تختخ» الباب ووقف قليلًا يتأمل الفجر، كانت العاصفة قد انتهت تمامًا، وحل محلها هدوء رائع لم يكن يقطعه سوى نباح «زنجر» ...

ومشى «تختخ» بين الأزهار والورود التي غسلها المطر، وأحسَّ بالراحة والهدوء برغم الليلة العاصفة ... والحوادث العجيبة ... والآلام التي يضجُّ بها جسمه ورأسه.

لم يكد «تختخ» يفتح باب الكشك الصغير، حيثُ ينام «زنجر»، حتى قفز الكلب الوفيُّ إلى أكتافه، وأخذ يلعق وجهه ... كأنما — من مكانه البعيد — استطاع أن يعرف كل ما حدث.

وقال «تختخ» محدثًا كلبه وهما عائدان إلى الفيلا: إنني المخطئ؛ فلو أنِّي كنتُ فتحت لك الباب، لما استطاع هذان الوغدان أن يَدخُلا «الفيلا» ولما اختفى الأخرس الصغير.

ودخلا من باب المطبخ ... وكان «تختخ» يحسُّ أنه لن يردَّ له قواه إلا وجبة إفطار ساخنة ... وهكذا انهمك في إعداد طبق من البسطرمة بالبيض ... ووضع لـ «زنجر» طبقًا حافلًا بالعظام واللحم بعد تسخينه.

وجلس «تختخ» و«زنجر» يتناولان طعامهما ... وقد بدأت الشمس تُشْرِقُ والعصافير تنطلق من أعشاشها.

انتهى «تختخ» من إفطاره، ووصلت الشَّغالة «حسنة» ... وانتظر نصف ساعة أخرى ثم تحدث تليفونيًّا إلى «محب» وطلب منه إحضار بقية المغامرين والحضور فورًا ... ثم ذهب إلى مسرح الحوادث في الدور الثاني ... وأخذ يفحَص كل شيء ... مكان سقوط الرَّجل الأول ... انطلاق الرصاصة التي اختفى صوتها في هدير العاصفة ... وقد وجد المظروف الفارغ ساقطًا بجوار الجدار حيث أحدثت الرصاصة ثقبًا، ودخل إلى غرفة الأخرس حيث دارت المعركة الثانية.

وسمع «تختخ» صوت المغامرين و«حسنة» تفتح لهم الباب ... ونزل يستقبلهم ... ولم تكد «لوزة» تراه ... وكانت أول الداخلين حتى صاحت: ماذا حدث؟

رد «تختخ» ... بابتسامته: حدث الكثير!

لوزة: وهل الولد الصغير مُستيقظ؟

تختخ: لا أدري إذا كان مستيقظًا أو نائمًا ... فهو لم يَعُد هنا!

لوزة: ماذا؟ أين ذهب؟

النجدة ... يا شاويش!

كان واضحًا على «تختخ» أثر الصراع الذي خاضه في تلك الليلة ... ولكنه كان هادئًا ومُتماسكًا تمامًا وهو يَروي للمُغامرين ما حدث ... وكانوا يَستمعون إليه مبهورين بتلاحق الأحداث وعنفها ... وانتهى «تختخ» من حديثه بقوله: هناك حقائق لا شَكَّ فيها في هذه القصة كلها ... منها أنَّ الولد الأخرس له أهمية كبيرة بالنسبة لبعض الناس ... ولعلَّ أهمَّ ما يجب أن نفعله أن نعرف ... لماذا هو مُهمٌّ إلى هذا الحد؟!

وسكت «تختخ» لحظة ثم مضى يقول: ثانيًا ... إنَّ الولد مغلوبٌ على أمره؛ فهؤلاء الناس ليسوا أهله مطلقًا ... ولو كانوا كذلك لما احتاجوا إلى خطفه ... ثالثًا ... إن مدينة الأقصر لها أهمية خاصة في هذه القصة كلها!

كانت «لوزة» منفعلة جدًّا، وهي تسمع القصة والتفاصيل فقالت: هل تعتقد أنهما قبَضا على الولد؟

تختخ: لا أعرف ... لقد كنتُ مُشتبكًا في صراع مع الرَّجل الثاني عندما فَرَّ الأخرس كما طلبتُ منه ... ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك!

ساد الصَّمْتُ المغامرين بعد قصة «تختخ» المثيرة، وبعد الحوار القصير الذي دار بينه وبين «لوزة»، كان كلٌّ منهم يفكر فيما حدث، وما ينبغي أن يتم بعد ذلك.

وكان «عاطف» أوَّل من قطع حبل الصمت قائلًا بخفَّة دمه المعهودة: يبدو أنَّ الولد الأخرس قد أعْدَانا وأصبحنا خرسًا مثله!

وابتسم «عاطف» ونظر في وجوه المغامرين، ولكنَّ أحدًا منهم لم يَبتسِم.

وقال «محب»: ما هي خطتنا التالية؟

رد «تختخ»: إبلاغ الشاويش «علي» بالطبع!

قالت «لوزة» بانفعال: الشاويش «علي»؟! إنه سيُعقِّد كلَّ شيء!

تختخ: لا تنسَي «يا لوزة» أنَّ هناك بلاغًا في قسم الشرطة عن الولد الأخرس، وبالطبع لا بد من إخطار الشرطة بما حدث له، بالإضافة إلى اقتحام هذين الشخصين للفيلا.

قالت «نوسة»: تعالوا نتناقش في الحديقة؛ فإنَّ الشمس مشرقة في الخارج، والجو هنا شديد البرودة.

وخرج الأصدقاء الخمسة يتبعهم «زنجر» إلى الحديقة، ولم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى ظهر الشاويش «علي» عند باب الحديقة يَحمل بعض الأوراق.

تقدم الشاويش وهو ينظر إلى المُغامرين فاحصًا، وعرف «تختخ» على الفور أنه يبحث عن الأخرس، وقام «تختخ» وقال: صباح الخير يا شاويش، لقد جئتَ بالطبع من أجل الأخرس!

قال الشاويش: إني لا أراه بينكم!

رد «تختخ»: إنَّه لم يعد موجودًا لا بيننا ولا في «الفيلا» ... وربما ليس في المعادي كلها!

فتح الشاويش فمه كأنه لا يُصَدِّق ما يقوله «تختخ» وقال في دهشة: لا أفهم ماذا تقصد! أشار «تختخ» إلى أحد الكراسي، وقال: تفضَّل يا شاويش وسأحكي لك كل ما حدث.

امتدت يد الشاويش إلى الكرسي، وما زال فمه مفتوحًا وجلس، ونظر «تختخ» إلى «لوزة» ... ففهمت على الفور أنه يُريد منها أن تَذهب لإعداد كوب شاي ثقيل للشاويش.

وقامتْ «لوزة» مُتردِّدة، فقد كانت تُريد أن تستمع إلى الحوار الذي سيدور بين «الشاويش» وبين «تختخ» ... وكما فهمت «لوزة» ما يُريده «تختخ» ... فهم «تختخ» ما تُريده «لوزة» ... وابتسم لها.

وأسرعت «لوزة» إلى الفيلا، ولكي يكسب «تختخ» وقتًا حتى تعود «لوزة» أشار إلى «زنجر» إشارة خفية فقام «زنجر» بالواجب على الفور، وأخذ يُداعب قدمَي الشاويش الذي أخذ يصيح بغضب: أبعدوا هذا الوحش عنِّي!

وكان هذا ما يريده «تختخ» بالضبط؛ فقد سحب «زنجر» واتجه به إلى نهاية الحديقة.

وعندما عاد «تختخ» كانت «لوزة» قد عادَت هي الأخرى بعد أن أوصت الشغالة «حسنة» لتعد الشاي للشاويش.

وبدأ «تختخ» يروي للشاويش ما حدث بالليل، والشاويش يستمع، وقد بدا عليه عدم التصديق ... حتى إذا وصل «تختخ» إلى إطلاق الرصاص قال الشاويش في ضيق: أتُريدني أن أصدق أن الرجل حاول قتلك؟

تختخ: الحقيقة أنني لا أعرف إذا كان يُريد قتلي أو لا، ولكن هذا ما حدث على كلِّ حالٍ!

الشاويش: ألم يَسمع أحد طلقة الرصاص؟

تختخ: أعتقد أنَّ أحدًا لم يسمع ... فقد كان الجو عاصفًا.

الشاويش: هل تستطيع إثبات أنَّ كل هذا حدث؟

وضع «تختخ» يده في جيبه وأخرج الرصاصة ومدَّها إلى الشاويش، وقال: هذه هي الرصاصة، والثقب ما زال موجودًا في الحائط.

فحص الشاويش الرصاصة ثم ردَّها لـ «تختخ» وقال: المهم ماذا حدث للولد بعد ذلك؟

وروى له «تختخ» ما حدث بعد إطلاق الرصاص ... حتى إصابته بالإغماء ... أمسك الشاويش بكوب الشاي الذي قد أحضرته «حسنة»، وقال وهو يهزُّ رأسه: ما هي استنتاجات المغامرين الخمسة عن هذه القصة العجيبة؟

تختخ: لقد كنا نتحدث قبل وصولك عن أهمية هذا الولد الأخرس ... ولكنَّنا لم نعرف حتى الآن لماذا هذا الاهتمام حتى يُحاول شخصان خطفه بهذه الطريقة العجيبة!

انتهى الشاويش من شرب الشاي، وقال وهو يقف: أريد أن أرى المكان الذي دارت فيه هذه المغامرة العجيبة.

تختخ: إنك تُكرِّر كلمة «العجيبة» يا شاويش وكأنك لا تُصدِّق ما حدث ...

الشاويش: ليس هذا مُهِمًّا، أن أصدق أو لا أصدق الآن، المهم فقط هو خدمة العدالة، فسأرى بنفسي حقيقة كل الذي قلته.

اتجه «تختخ» والشاويش إلى داخل الفيلا ... وبقيَ المغامرون الأربعة، وقد بدَت على وجوههم الحيرة، ولكن «نوسة» قالت فجأة: أعتقد أن نقطة البداية ستكون في الأقصر ... ومن الصدفة العجيبة أن يكون والدا «تختخ» هناك، وبهذا يُمكن أن تجد سببًا معقولًا للسفر.

قال «محب»: معقول جدًّا، ولنَنتظر «تختخ» ونعرض عليه الفكرة.

مرت فترة قصيرة ثم ظهر الشاويش ومعه «تختخ» واتجها إلى حيثُ كان الأصدقاء يجلسون، ولاحظت «لوزة» أن وجه «تختخ» كان غاضبًا على حين كان الشاويش يبتسم.

وقال الشاويش وهو ينظر إلى المغامرين الخمسة: لقد كان خطؤكم أن تَحتفظُوا بالولد عندكم ... ولو بقي عندي لما استطاع أحد أن يقترب منه ... وهذا درس لكم لعلكم تتوقفون عن التدخل فيما لا يَعنيكم.

وقبل أن يتمكَّن أحد من الرد استدار الشاويش وغادر المكان وهو يسير مزهوًّا ... إنه حقق انتصارًا تاريخيًّا على الأصدقاء ...

وجلس «تختخ» صامتًا فقالت «نوسة»: لا تدع حديث الشاويش يُضايقك، لقد فعلت ما بوسعك، وعلينا أن نُحاول العثور على الأخرس سواء كان الرجلان قد خطفاه أو أنه هرب.

وسكتت «نوسة» لحظة ثم مضت تقول: كنتُ أتحدَّث الآن مع الأصدقاء عن الأقصر، وأنها هي النقطة التي يجب أن نبدأ منها حالًا ما دمت قلت إنها كانت موضع اهتمام الولد.

فجأةً قالت «لوزة»: لقد روى لنا «تختخ» الحركات والإشارات التي قام بها الولد الأخرس عندما شاهد صورة مدينة «الأقصر»، فلماذا لا نُحاول تفسير هذه الإشارات لعلنا نخرج منها بشيء ينفعنا؟

قال «تختخ»: سأحكي لكم ما فعله …

ولكن قبل أن يبدأ الحديث قال «عاطف»: بدلًا من أن تحكيَ لنا أليس من الأفضل أن تُمثِّل دور الأخرس شخصيًّا، وبدلًا من أن تقول لنا إنه رفع يده أو أنزلها تقوم بتمثيل كل هذا؟!

نوسة: هل تُريد السخرية «يا عاطف»؟

رد «تختخ»: أبدًا، هذا منطقي … تعالوا نذهب إلى الغرفة، وسأمثل لكم كل ما قام به الأخرس.

دخلوا جميعًا إلى الفيلا وصعدوا إلى الدور الثاني حيث توجد غرفة الضيوف، وقف «محب» و«نوسة» و«عاطف» و«لوزة» في جانب من الغُرفة، وأخذ «تختخ» يُمثِّل دور الأخرس … كانت أول حركة هي الإشارة إلى صدرِه بيده، فقالت «نوسة»: أعتقد أنه يقصد أن يقول أنا.

كانت الإشارة الثانية إلى نور الغرفة، وأبعد يدَيه في حركة أفقية فقالت «لوزة»: هو يُريد أن يقول إنَّ الدنيا كانت ظلامًا.

كانت الإشارة الثالثة بإصبعَيه إلى عينَيه … فقال «عاطف»: إنه يريد أن يقول كنت أرى برغم ذلك.

ومضى «تختخ» يُكمل حركات الأخرس، وإشاراته والأصدقاء يُقدمون استنتاجاتهم حول معنى هذه الإشارات والحركات، وعندما انتهى «تختخ» من تمثيل كلِّ ما تذكره من حركات الأخرس … كانت قد تكوَّنت عندهم فكرة معقولة عما أراد الأخرس أن يقوله، وقال «تختخ»: أعتقد أنَّ شيئًا ما بدأ يدور في ذهني بعد استنتاجاتكم المعقولة حول حركات الأخرس وإشاراته.

لوزة: أين الكارت الذي به صورة الأقصر؟

تختخ: لا أدري إذا كنت قد أخذتُه معي أم تركته للولد!

لوزة: اذهب للبحث عنه في غرفتك، وسنَبحث عنه هنا!

وبدأ الأصدقاء يفتشون الفراش ... وفجأة قالت «نوسة»: ما هذا؟ ومَدَّت يدها تحت أغطية الفراش التي كانت ما تزال مكومة من أثر الصراع، وأخرجت منديلًا كبيرًا مُتَّسِخًا.

نظر الأصدقاء إلى المنديل وقال «عاطف»: منديل! لا شيء سوى منديل.

نوسة: ولكن ألم تلاحظ ما عليه من ألوان؟!

دقق الأصدقاء النظر في المنديل وقال «محب»: إنه بالتأكيد ليس منديل «تختخ» وليس منديل الأخرس؛ فهو لم يكن يملك شيئًا.

لوزة: أتقصد أنه منديل الرجل الذي صارع «تختخ» في الغرفة؟

محب: بالتأكيد.

وقرب «محب» المنديل من أنفه ثم قال: إنَّ به رائحة غريبة لم أشمَّ مثلها في حياتي من قبل.

ودخل «تختخ» في هذه اللحظة يحمل الكارت، فوجد الأصدقاء مُلتفين حول المنديل فقال: ما هذا؟

عاطف: منديلك؟

تختخ: لا، طبعًا.

محب: إنه منديل الرجل الذي صارعتَه.

أمسك «تختخ» بالمنديل بأطراف أصابعه، ولاحظ على الفور الألوان الحمراء والزَّرقاء التي لوَّثَت المنديل ... ثم كما فعل «محب» قرب المنديل من أنفه، وأخذ يشمه بعمق، ثم قال: إنَّ به رائحة غريبة.

نوسة: هذا ما قاله «محب».

تختخ: وهذا يُناسب الفكرة التي تدور بذهني.

استنتاجات

لم ينتَهِ «تختخ» من جملته حتى سمع المغامرون صوت سيارة تقف أمام الباب، ونظرت «لوزة» مِنَ النَّافذة ثم قالت: المفتش «سامي» ومعه بعض رجاله!

محب: لقد أخطَرَه الشاويش بما حدث.

أسرعت الشغالة «حسنة» تفتح الباب، ودخل المفتش بقوامه الفارع وخطواته النشيطة ... وأسرع إليه المغامرون ... وقال المفتش: هل ما رواه لي الشاويش صحيح؟

تختخ: نعم.

المفتش: شيء خطير ... هل حافظتَ على البصمات وغيرها من الأدلة؟

تختخ: نعم.

أشارَ المفتِّش إلى رجاله فبدءوا في رفع البصمات ... وجلس المفتش مع «تختخ» يستَمِعُ إلى أحداث الليلة، وعندما انتهى «تختخ» من حديثه ناول المفتش المنديل الذي عثروا عليه قائلًا: أعتقد أنه يخصُّ الرجل الذي كان يحمل الأخرس؛ فقد تصارعنا في الغرفة، فسقط منه المنديل.

أمسك المفتش بالمنديل ولاحظ على الفور الألوان التي به، وقال: يبدو أنه يشتغل رسامًا أو نقاشًا!

تختخ: لا أعتقد.

المفتش: لماذا؟

تختخ: لا أدري ... على كل حال، فإنَّ الرجل الذي صارعتُه كانت يداه أشبه بالمطرقة، أصابعه طويلة غليظة خشنة الملمس، وقد عرفتُ كل ذلك عندما أطبق بيديه على رقبتي.

المفتش: وهل كوَّنتَ فكرة عن هذه الأحداث كلها؟

تختخ: نعم.

وروى «تختخ» للمفتش فكرته ... فأخذ يستمع إليه باهتمام وهو يهز رأسه ثم قال: إنَّ فكرتك يُمكن أن تكون صحيحة بعد أن نُرسل المنديل إلى المعمل الجنائي لتحليل ما عليه من ألوان.

تختخ: هذا ما فكرت فيه.

كان بقية المغامرين يُتابعون أعمال أعوان المفتِّش، وهم يُفتشون المكان بدقة، ويرفعون البصمات، وعندما انتهوا من عملهم، أعطاهم المفتش المنديل والرَّصاصة، وطلب إرسالها على وجه السرعة إلى المعمل الجنائي.

وبعد أن قضى المفتش فترة في الحديث مع المغامرين، ودَّعُوه حتى باب الحديقة، وقال: إنه سيُخطرهم بنتيجة رفع البصمات، والمنديل، والرَّصاصة؛ بمجرد انتهاء المعمل الجنائي.

قضى المغامرون بعض الوقت في الحديث، وكان من رأي «لوزة» أنَّ الأخرس لم يقع في قبضة العصابة، وأنهم يجب أن يبحثوا عنه.

قال «عاطف» ساخرًا: وكيف نبدأ هذا البحث؟

قالت «لوزة»: لماذا لا يشمُّ «زنجر» ثياب الأخرس ثم ينطلق لعله يصل إلى المكان الذي يختفي فيه؟

قالت «نوسة»: هناك شيء آخر ... إنني لا أرى القطة التي كانت مع الأخرس!

محب: لقد كانت آخر مرة رأيتُها فيها عندما طاردها «زنجر» في الحديقة أمس.

تختخ: لقد كانت في الفيلا على ما أذكر حتى ساعة النَّوم ليلًا ... على كل حال لا بأس أن نُحاول عن طريق «زنجر» فليس هناك ما نفعله سوى هذا.

نوسة: إنني أقترح أنْ نُسافر إلى الأقصر!

تختخ: إنني أعتقد أننا سنُسافر، ولكن ليس الآن، فلا بُدَّ من انتظار نتيجة البصمات والتحاليل التي سيجريها المعمل الجنائي.

قام «تختخ» بإحضار «زنجر» وبحثوا عن ملابس الأخرس القديمة، وقال «تختخ» لـ «زنجر» وهو يضع الثياب أمامه: هيا يا «زنجر» ... نُريد أن نعرف مكان الولد الأخرس.

شَمَّ «زنجر» الثياب بعمق، ثم رفع رأسه إلى أعلى، وأخذ يدور في جهات مُختلفة، ثم انطلق إلى ركن في الحديقة، وتوقف هناك لحظات ... وأخذ المغامرون يَفحصُون المكان الذي كان يقع تحت إحدى الشرفات بعيدًا عن المطر ... ومدت «لوزة» يدها والتقطت زرارًا أخضر اللون، وقالت: هذا أحد الأزرار التي كانت في الثياب التي أعددتُها للولد.

محب: واضح جدًّا أن الأخرس كان يَختبئ في هذا المكان.

مرَّت فترة من الوقت ثم قالت «نوسة»: أهمُّ من هذا أنَّ الأخرس في الغالب لم يقع في أيدي العصابة!

أشار «تختخ» إلى «زنجر» وقال: ماذا بعد ذلك؟

أخذ «زنجر» يدور في المكان، ويتشمَّم الأرض ... كان واضحًا جدًّا أنَّ الأمطار أضاعت الرائحة ... ولكن «زنجر» أخذ يحاول، وأخيرًا عاود الانطلاق إلى اتجاه باب الحديقة الخلفي ... وقفز من خلاله وخرج الأصدقاء خلفه.

كان الشارع الذي تطل عليه حديقة «تختخ» غارقًا في ماء المطر ... لم يكن هناك شَكٌّ في أن «زنجر» لن يستطيع تتبع الرَّائحة أكثر من ذلك، فقد توقف في مكانه، وأخذ يعوي في غضب.

وقال له «تختخ» وهو يربت على رأسه: لا بأس أَيُّها المغامر الذكي، لقد فعلت كل ما بوسعك.

اقترحت «نوسة» على المغامرين أن يقوموا بجولة في شمس النَّهار الدافئة مشيًا على الأقدام، فوافقوا جميعًا، واتجهوا إلى كورنيش النيل وهم يتحدثون ... فجأة قالت «نوسة»: إنني أحس أننا مراقبون.

تختخ: سنستمرُّ في السير كأننا لم نُلاحظ شيئًا ... فإنني أشعر بهذا منذ خرجنا من البيت.

عندما وصلوا إلى الكورنيش اتجهوا إلى كازينو «جود شوط» وطلبوا فناجين من الكاكاو الساخن، وقام «تختخ» متظاهرًا أنه ذاهب إلى دورة المياه، وأخذ يتفحص وجوه الزَّبائن الذين دخلوا بعده ... لكنه لم ير أحدًا يمكنه أن يشك فيه.

انقضى بقية النَّهار دون أن يحدث شيء ... أو يتصل المفتش «سامي» بهم ... وافترق الأصدقاء في المساء على أن يلتقوا مرة أخرى في الصباح.

كان الجو شديد البرودة ... وخلع «تختخ» ثيابه ... وارتدى «بيجامة» من الصوف وتمدَّد في فراشه تحت الأغطية ... وأخرج دفتر مذكراته الصغير، وأخذ يقرأ الملاحظات التي دوَّنها عن الأخرس ... والفكرة التي تدور بذهنه عن الأحداث التي تتطور شيئًا فشيئًا ... وهبط الظلام سريعًا ... وساد الصمتُ وما زال «تختخ» متمدِّدًا في فراشه، وقد وضع أمامه «الكارت» مقسومًا إلى قسمين ... أحدهما يمثل معبد الكرنك ... والثاني يُمثِّل مجموعة

من النقوش الفرعونية ... وتحت هذه النقوش كتب: «من النصوص الجنائزية في مقبرة «سيتي».» وفجأة ضرب «تختخ» جبهته بيده وقال: الأحمر والأزرق!

في تلك اللحظة دخلت الشَّغَّالة «حسنة» وقالت لـ «تختخ»: هل تتعشى الآن؟ فرد «تختخ»: نعم ... ثم نحى الأغطية جانبًا ... ونزل إلى الدور الأرضي ... وجلس إلى مائدة الطعام، وهو يضع رأسه بين كفَّيه مُستغرقًا في تفكير عميق، ويُردد بين فترة وأخرى: الأحمر والأزرق!

وتناول «تختخ» طعام عشاءه، وهو شاردُ الذِّهْن حتى إنه لم يحسَّ بطعم الأكل ... ثم تذكر أنَّ «زنجر» لم يتناول عشاءه، فخرج إليه وأحضره ووضع له بعض الطعام، وجلس يُراقبه وهو يأكل وقال له: أعتقد يا «زنجر» أننا سنقوم الليلة بمعركة أخرى. هل أنت مُستعد؟

رفع «زنجر» رأسه ونظر إلى «تختخ» وكأنما فهم ما قاله، وأطلق نباحًا هادئًا كأنما يقول: إنني على استعداد.

نظر «تختخ» إلى ساعته ... كانت الثامنة والنِّصف ... فقرر أن يتصل بالمفتش «سامي»، فقام إلى التليفون ورفع السماعة ... ولكن التليفون كان صامتًا كأنه قطعة من الخشب، وأحسَّ «تختخ» بشعور غامض ... إن خطرًا ما يحوم حوله ... ولكنه أحسَّ بالطمأنينة عندما وجد «زنجر» يجلس بجواره رافعًا الرأس لامع العينين.

فقرَّر «تختخ» أن يُبْقِي «زنجر» معه داخل الفيلا ... وهكذا طلب منه أن يتبعه، وصعدا إلى غرفة النوم ... جلس «تختخ» على الفراش وقبع «زنجر» على الأرض بجوار الفراش.

مضت فترة من الوقت و«تختخ» يستمع إلى محطة البرنامج الموسيقي، ويُفكر حتى ثقلت جفناه وأطفأ النُّور.

وفي الخارج عادت العاصِفَة الشتوية إلى الهجوم مَرَّة أخرى بعد أن ظَلَّت هادئة طوال النهار ... وبرغم قوة العاصفة فإنَّ «زنجر» اليقظ أحسَّ أن شيئًا غير عادي يحدث في الخارج ...

وقف على قدميه الخلفيتين ... ومَدَّ ذراعيه وأخذ يهز «تختخ» بشدة وهو يُزَمْجِر ... فاستيقظ «تختخ» مذعورًا ... رأى جسد «زنجر» يهتز متوتِّرًا وأدرك أنَّ شيئًا غير عادي يحدث داخل الفيلا أو خارجها.

قفز من فراشِهِ مُسْرعًا وتبع «زنجر» الذي انطلق كالسهم إلى الدور الأسفل من الفيلا، ثم إلى غرفة المكتبة التي يفتح بابُها على الحديقة مباشرة.

فتح «تختخ» الباب بهدوء وهو يضع يده على رأس «زنجر» حتى لا يَخرج، وأخذ يحدق في الظلام، ويُنصت، ولكنه لم يسمع شيئًا ... ومضت لحظات ... ثم ظهر شبح صغير يجري ... وعندما وصل الشبح إلى قرب الباب، ظهر شبحان آخران يَجريان خلفه بين الأشجار ... ثم اندفعت قطة صغيرة داخله ... وخلفها اندفع الأخرس ... وأغلق «تختخ» الباب فورًا ... فقد تقدم أحد الشبحين مُسرعًا مُحَاولًا الدخول!

الهجوم الثاني

ارتمى الأخرس الصغير على أرض الغرفة ... كان أزرق اللون مُتسارع الأنفاس مُبْتَل الثِّياب، وأسرع «تختخ» إليه ووضع يده على جبهته ... كانت درجة حرارته مُرتفعة، وأخذ يسعل سعالًا طويلًا جافًّا، وأدرك «تختخ» أنَّ الولد الصغير مريض جدًّا، وأنه مُشرف على الموت، فحمله بين ذراعيه وأسرع يصعد به إلى الطابق الثاني، حيث أبدل له ثيابه ومدده في الفراش وغطاه، ورأى القطة الصغيرة تقفز إلى الفراش وتأوي إلى صدر الأخرس الصغير.

نظر «تختخ» إلى ساعته، كانت الثانية بعد منتصف الليل ... وأسرع إلى التليفون، ورفع السماعة، ومرةً أخرى وجد التليفون صامتًا لا أثر للحياة فيه، وأدرك «تختخ» أنه في مأزق لو اقتحم الرجلان عليه الفيلا وهو وحيد بلا سلاح، وهما لا شك مُسلَّحان ... وعرف أنهما قد كانا يُراقبانه طول النهار، وأنهما قطَعا سلك التليفون لمنعِ اتصاله بالخارج.

كان عليه أن يتصرف بسرعة، فذهب إلى غرفته وأخرج مسدَّس الصوت الذي يحتفظ كل واحد من المغامرين الخمسة بواحد منه، وأسرع إلى الطابق الأرضي ... كان «زنجر» يقف مهتاجًا في «الصالة» فلم يكد يرى «تختخ» حتى اندفع إلى الغُرفة التي دخل منها الرجلان في المرة الأولى ... وأدرك «تختخ» أنهما يحاولان الدخول من الطريق نفسه مرة أخرى.

كان جسد «زنجر» يرتجف وهو يُحاول الهجوم على الأيدي التي كانت تعبث بالنَّافذة ... ولكن «تختخ» كان يربت عليه ... فقد وضع خطة صغيرة ولكنَّها كافية لإبعاد الرجلين ... وأسرع إلى غرفة أبيه وأحضر عصا من المجموعة التي يَحتفظ بها والده ... ووقف يراقب الأيدي التي كانت تعمل بسرعة لإزالة المسامير التي دق بها «تختخ» الأخشاب في مكانها ... وإن بقي الزُّجاج مكسورًا فلم يتَّسع الوقت لاستبداله. كان قلب «تختخ» يدق بشدة، ولكنه ظل مُتمالكًا لأعصابه فقد كان محتاجًا إلى كل ذكائه وشجاعته.

بعد فترة امتدَّت يدٌ إلى الداخل لفتح الزجاج ... وكانت هذه هي اللحظة التي يَنتظرها «تختخ»، فقد رفع العصا، وبكلِّ ما يَملك من قوة هوى بها على الذراع المُمتدَّة ... وسمع صرخة ألم ... وفي الوقت نفسه أطلق طلقة من مسدس الصوت دوت بشدة ... وسرعان ما سمع أقدامًا تجري ... وابتسم لأول مرة ... لقد هرب الرجلان ...

قال «تختخ» لـ «زنجر»: ابقَ أنت هنا.

وأسرع «تختخ» إلى غرفة الأخرس ... كان الولد الصغير الضعيف يسعل بشدة ... وأدرك «تختخ» أن عليه أن يتصرَّف بسرعة لنقله إلى المُستشفى ليُعالَج، وليُوضع تحت الحراسة في الوقت نفسه ... ولكن كيف السبيل إلى الاتصال بالعالم الخارجي، والتليفون مقطوع السلك؟!

وفجأة طرأت لـ «تختخ» فكرة أسرع إلى تنفيذها ... كتب بضعة أسطر إلى «محب» قائلًا: الرجلان يَحومان حول الفيلا ... الولد عاد ... احضر ومعك الشاويش بسرعة ... واتَّصِل في الوقت نفسه بالإسعاف، لا بد من نقل الولد إلى المستشفى؛ فهو في حالة سيئة.

ونزل «تختخ» مُسرعًا، وعَلَّق الرِّسالة في الطوق حول رقبة «زنجر» وقال له: إلى «محب» فورًا ... وعد.

هَزَّ الكلب ذيله موافقًا ... وذهب «تختخ» على باب الفيلا وأنصت لحظات، ثم فتح الباب بسُرعة وقال: هيا.

انطلق «زنجر» في الظلام، وأغلق «تختخ» الباب، وعاد إلى الغرفة التي حاول الرجلان الدخول منها ... كان صوت العاصفة قد هدأ قليلًا وأصبح في إمكانه أن يسمع صوت أيَّ شخص يقترب ... ومَرَّت الدقائق بطيئة دون أن يحدث شيء، وبدأ يحس ببعض الاطمئنان فصعد إلى حيث يرقد الولد، ووجد درجة حرارته ما زالت مُرتفعة ... وسعاله لا ينقطع ...

جلس بجواره لحظات ثم نزل مرة أخرى، وذهب إلى الغرفة ... لم يجد شيئًا، ولم يسمع صوتًا ... ومضت فترة وهو واقف في الظلام حتى سمع صوت نباح «زنجر» فأسرع يفتح له الباب ... واندفع الكلب الذكي ... ووجد «تختخ» ردًّا من «محب»: سأُنفِّذ التعليمات فورًا.

ربَّت «تختخ» على رقبة «زنجر»، وجلس في الصالة يستعرض الأحداث التي جرت ... لقد هرب الولد الصغير ... واختفى في مكانٍ ما طول النهار، ثم قرَّر العودة، رُبَّما تحت تأثير المرض أو الجوع ... وكان الرجلان يراقبان الفيلا، فشاهداه وهو يدخل ... ولحسنِ الحظ أن تنبَّه «زنجر» وأيقظ «تختخ» ليفتح الباب للولد في الوقت المناسب ... لقد قام

«زنجر» بدور عظيم في هذه الليلة، وها هو ذا يجلس أمام الغرفة التي حاول الرَّجُلان اقتحامها متنبِّهًا مُستعدًّا.

ومضت فترة أخرى وسمع «تختخ» صوت جرس دراجة «محب»، وأسرع ليفتح الباب ... قال «محب» وهو يَلهث: لقد تركت الشاويش يلبس ثيابه وحضرت مسرعًا ... أين الرجلان؟

تختخ: أتظن أنهما قد ابتعدا؟ فقد ضربتُ أحدهما على يده ضربة قوية لعلَّه ما زال يصرخ منها.

محب: احكِ لي ما حدث!

وروى «تختخ» بسرعة ما حدث ... فقال «محب»: كيف نسينا أن نطلُب من المفتش أن يضع حراسة على المنزل؟

تختخ: هذا أفضل ... فقد عاد الأخرس ... وسنُحاول إقناع المفتش «سامي» باستخدام الأخرس طُعمًا للإيقاع بالعصابة أو على الأقل بالرجلَين اللذَين حاوَلا خطفه ... ونعرف منهما الحقيقة.

محب: إنك لم تقل لنا فكرتك حتى الآن ... هذه الفكرة التي كنتَ تُناقشها مع المفتش «سامي» أمس.

تختخ: إن الفكرة لم تنضج بعد ... ولكن إذا وصلت تحاليل المعمل الكيميائي غدًا ... وتطابقت مع ما وصلتُ إليه من استنتاجات، فسوف أحكي لكم الفكرة.

محب: إنني أشعر ببردٍ فظيع ... هل يُمكن أن تعدَّ لنا كوبين من الشاي؟

تختخ: هيا إلى المطبخ.

وجلس الصديقان في المطبخ، يتحدثان والماء على النار ... وسمعا صوت جرسِ سيارة الإسعاف ... وأسرع «تختخ» يفتح الباب ... وظهر رجلان يحملان نقالة ... وظهر الشاويش «علي» في الوقت نفسه ... وكان قد ارتدى ثيابًا ثقيلة ... وارتدى فوق كل هذا معطفًا ثقيلًا فبدا كأنه كرنبة محشوَّة، وفي يده لمع مسدَّس حكومي ضخم.

صاح الشاويش: أين المجرمون؟

تختخ: أيُّ مجرمين؟

الشاويش: لقد زارني صديقك «محب» وقال: إنَّ شخصَين يُحاولان اقتحام الفيلا والاعتداء عليك.

قال «تختخ» بتأثُّر: شكرًا يا شاويش على عواطفك نحوي.

الشاويش: لا عواطف ... إنني أؤدِّي الواجب ...

وقف الرجلان أمام الباب فقال «تختخ»: تفضَّلا ... إنَّ المريض في الدور الثاني، دخل الرجلان وصعدا السلَّم وخلفهما «تختخ» يروي للشاويش بسرعة ما حدث، وبالطبع لم يُصَدِّق الشاويش حرفًا مما قاله «تختخ» إلا بعد أن شاهَدَ الأخرس الصغير وهو يتلوَّى من السعال والحمى.

قال «تختخ» للشاويش: مهمتك الآن يا شاويش حماية هذا الولد ... فقد يكون الرجلان قريبين يُراقبان ما يحدث.

الشاويش: ليُحاولا ... وسيجداني في انتظارهما.

ثم أضاف بسخرية: هل يظنَّان أنَّني مثلك؟!

لم يردَّ «تختخ» فلم يكن مُستعدًّا لإغضاب الشاويش في هذه الليلة، حتى إنه عندما حاول «زنجر» أن يتعرَّض للشاويش كالمعتاد، أسرع يمنعه.

انطلقت سيارة الإسعاف وبها الشاويش والأخرس ... وجلس «تختخ» و«محب» يشربان الشاي الساخن ويتحدَّثان ... وقام «تختخ» بتوصيل سلك التليفون المقطوع. وأمضى «محب» بقية الليل عند «تختخ»، وفي الصباح اتصل «تختخ» بالمفتش «سامي» وروى له ما حدث ... وسأله عن نتيجة تحاليل المعمل الجنائي، فقال المفتش: بعد لحظات سوف أتصل بك.

جلس «محب» و«تختخ» في انتظار مكالمة المفتش، وظهرت «نوسة» و«لوزة» و«عاطف» عند باب الحديقة فقال «محب»: إنَّ «نوسة» قرأت الرِّسالة التي أرسلتَها لي ...

قالت «لوزة»: مرةً أخرى ... ماذا حدث؟

تختخ: لا شيء ... هو ما حدث ليلة أمس ... الفارق الوحيد أنَّ «زنجر» كان معي ... وبدلًا من أن يَقتحِم الرجلان الفيلا، أصيب أحدهما بضربة قاسية، وهرب الاثنان ...

لوزة: وأين الأخرس؟

تختخ: إنه في المستشفى ... في غاية المرض.

لوزة: سأذهب فورًا لزيارته.

نوسة: وأنا معك.

وانصرفت الفتاتان ... ودَقَّ جرس التليفون ... كان المتحدث هو المفتش «سامي» وأخذ «تختخ» يُنصِت بانتباه: إحدى البصمات لمُجرِم مشهور هارب من السجن ... من أسيوط ... ولكن ليس معروفًا له مكان الآن ... اسمه «خليفة الزين» وشهرتُه «الزين».

الرصاصة من مسدَّس «برتا» غير مرخص.

قال «تختخ» بلهفة: المُهم ... الأحمر والأزرق.

المفتش: نظريتك صحيحة ... إنها تُشبه الألوان التي كان يستخدمها الفراعنة، والمُرجَّح أنها من أحد مقابر الفراعنة المدفونة، والتي لم تَخرُج إلى الشمس ... ومن المعروف أنَّ هذه الألوان ثابِتة ولا تُمسح بسهولة ... لهذا يُرَجَّح أن تكون اللوحات نُزعت لسرقتها.

تختخ: أشكرك يا سيدي المفتش ... سنُسافر فورًا إلى الأقصر.

المفتش: كنتُ أود أن أصحبكم ولكن عندي هنا قضية هامة ... على كل حال اتصلوا بالمفتش «مندور» في شرطة الأقصر، إنه صديق عزيز، وضابط ممتاز، وستجدون منه كل مساعدة.

وضع «تختخ» السماعة وقال: «محب» و«عاطف»، فورًا ... إلى الأقصر.

عاطف: و«نوسة» و«لوزة»؟

تختخ: سنترك لهما رسالة ... إنني أريد منهما أن تهتما بالولد الأخرس لعلَّهما تحصُلان منه على معلومات ... وإن كنتُ أعتقدُ أنَّ حالته الصحية لن تسمح له بإدراك ما يدور حوله لفترة طويلة.

أسرع «محب» و«عاطف» كلٌّ منهما إلى منزله، وحصلا على إذن بالسفر إلى الأقصر، وقد ساعدهم وجود والد «تختخ» ووالدته هناك على الحصول على ذلك الإذن.

وبعد ساعتين من المكالمة كان المغامرون الثلاثة، يركبون القطار المسافر إلى الأقصر، وطوال الطريق كان «تختخ» يشرح «لمحب» و«عاطف» فكرته عن كل ما حدث.

تحت الأرض

كان الجو يزداد دفئًا كُلما اتجهوا جنوبًا ... ووصلوا إلى الأقصر قرب الساعة الرَّابعة ... واتجهوا فورًا إلى حيث كان والد «تختخ» ووالدته ينزلان في شقة خال «تختخ» الذي سافر إلى الخارج ... وكانت مفاجأة أن يجدا «تختخ» أمامهما ومعه صديقاه ... واحتضنت الأم ابنها في شوق قائلة: ماذا أتى بك يا «توفيق»؟ لقد حاولنا إقناعك بالحضور فرفضت.

رد «تختخ» وهو يبتسم: لقد غيَّرت رأيي.

قالت الأم: هل تكفيكم غرفة واحدة؟

تختخ: طبعًا.

وفتحت الأم باب غرفة واسعة تُطِلُّ على حديقة صغيرة ... وفتح «تختخ» النافذة ونظر إلى الخارج ... كان يُريد التأكد أنهم ليسوا متبوعين من العصابة ... ولم يجد شيئًا يُثير الشك.

اغتسل الأصدقاء الثلاثة، وتناولوا الغذاء، وارتاحوا قليلًا ثم قال «تختخ» لوالده: سنقوم برحلة إلى البر الغربي.

الأب: هل نأتي معكم؟

تختخ: لا داعي لذلك.

وانصرف الثلاثة مُسرعين ... واتجهوا إلى شاطئ النيل، فاستقلُّوا قاربًا إلى الشاطئ الغربي، وسرعان ما كانوا يسيرون متجهين إلى منطقة المقابر الكبرى في «أبيدوس» حيث مقبرة «توت عنخ آمون» ومقبرة «سيتي الأول»، وكانت مجموعات السياح تتناثر على طول الشاطئ ... بعضها ذاهب إلى المقابر ... وبعضها عائد منها ... وانضم المغامرون الثلاثة إلى أحد الأفواج النَّازلة إلى مقبرة «سيتي».

ومال «عاطف» على «محب» قائلًا: هل نحن في مغامرة حقًّا ... أو أننا من السياح الأجانب؟! إنني لا أشعر بأن أي شيء يُمكن أن يحدث في هذا المكان.

محب: لقد سمعتُ فكرة «تختخ» وأظن أنها معقولة ... المشكلة هي من أين نبدأ في هذه الصحراء الواسعة ... وكيف العثور على ما يدلنا على أفراد العصابة بين هؤلاء الناس؟

وبدءوا النزول إلى مقبرة «سيتي» ... كانوا ينزلون على سلالم حديدية رفيعة مُعَلَّقة، الجانب الأيمن منها للنزول ... والجانب الأيسر للصعود ... واختفى ضوء النهار ... وظهرت أنوار كهربائية خفيفة في أماكن مُتَبَاعِدة ... كانت الظلمة هي الغالبة ... وبدأ «عاطف» يحسُّ بتوتُّر وشيء ما في نفسه يهتف به أن شيئًا غير عادي سيَحدُث ... وقد حدث فجأة ... في منحنى مُظلم وجد «تختخ» نفسه يتمايل بشدة، ثم يسقط من فوق السلم ... وسمع «محب» صوته وهو يَصيح: «محب» ... «عاطف»!

والتفت الصديقان إلى مصدر الصوت، ووجدا «تختخ» يتعلَّق بذراع واحدة بدربزين السلم ... وأسرع «محب» و«عاطف» إليه ... ووقف بعض السياح ينظرون إليهم في دهشة ... ثم أسرعوا يُساعدون «محب» و«عاطف» في جذب «تختخ» إلى أعلى.

قال «محب»: ماذا حدث؟

تختخ: لا أدري ... كنتُ بجوار الدربزين عندما أَحْسَسْتُ بشخصٍ يَدفعني بِشِدَّة ففقدت التوازن وكدتُ أسقط من بين فتحات الدربزين في الهوة تحت السلم ... وأسرع هو جاريًا إلى الأمام.

عاطف: ألم تره؟

تختخ: لا ... كان ذلك عندما اجتزنا المُنعطَف المظلم.

عاطف: يجب ألا نفترق ... وليُمسِك أحدنا بذراع الآخر.

أدرك الثلاثة على الفور أنهم متبوعون بالعصابة.

قال «تختخ»: أعتقد أنَّ واحدًا منهم على الأقل موجود الآن أمامنا؛ لأنه سبقني في النزول، ومضى المغامرون الثلاثة يسيرون معًا بعد أن كانوا قد تفرقوا بين بقية السياح.

كانت مقبرة «سيتي» الأول العظيمة تنحدر ١٠٠ متر في جوف الصخر حتى تنتهي عند القاعة الذهبية حيث دُفن الفرعون الكبير ... وأخذ الأصدقاء يهبطون السلم محاذرين ... وهم يتفحصون وجوه السياح حولهم، ووصلوا إلى القاعة الذَّهبية حيثُ احتشد عدد كبير من السياح يتفرَّجون مبهورين بعظَمة البناء ... وسمعوا الدليل يشرح ما يراه السياح: هذه هي غُرفة المدفن ... وتشمل في جزئها الأمامي بهو الأعمدة، وفي مؤخرتها قبو كبير

عليه رسوم فلكية تمثل أبراج السماء ... وعلى الجدران كما ترون نصوص وصور دينية مختلفة ... منها ما يمثل سير زورق آلهة الشمس ليلًا في العالم السفلي ... كان صوت الدليل عميقًا ... والضوء خافتًا ... وبدت جماعة السياح كالأشباح، وأَحَسَّ «عاطف» مَرَّة أخرى بتوتُّر شديد ... وكان «تختخ» يدور حول الجدران يتأمل النقوش الزَّاهية الألوان وهو يتمتم: الأزرق والأحمر!

لاحظ «عاطف» أن «تختخ» كان يَنحني بجوار الجدران يفحص الأرض ... ويمد يده بين فترة وأخرى يلتقط بعض الأتربة من الأرض.

وانتهت الجولة، وبدءوا رحلة العودة ... وعندما وصلوا إلى سطح الأرض مرةً أخرى، كان «تختخ» يقبض كفُّه على شيء، فلما ابتعد الثلاثة عن جماعات السياح فتح «تختخ» يده ... كانت هناك كمية صغيرة جدًّا من الأتربة الملونة قد لوثت كف «تختخ» باللونين الأحمر والأزرق.

قال «تختخ»: لقد عرفت كل شيء الآن ...

محب: إنَّ هذا يؤيد فكرتك تمامًا.

تختخ: طبعًا ... إنَّ العصابة تَسرق اللوحات المرسومة على الجدران ...

عاطف: ولكن هذه اللوحات كاملة.

تختخ: سنَعرف ماذا يحدث إذا بقينا حتى يهبط الظلام.

اتجه الأصدقاء بعد ذلك إلى معبد «حتشبسوت» العظيم ... وداروا به دورة كاملة مع السياح ... ثم أعلن الدليل العودة إلى الشاطئ الشرقي لقُرب مغيب الشمس ... وبدأ الجميع رحلة العودة ... أمَّا المغامرون الثلاثة فقد اختاروا تلًّا من الرمال اختفوا خلفه ... وقال «تختخ»: الآن أستطيع أن أشرح لكم القصة كاملة ... إنَّ هناك عصابة تقطع اللوحات المرسومة من على جدران المعبد وتستبدلها بلوحات زائفة ... ولا أدري حتى الآن كيف يتمُّ ذلك وهناك حُرَّاس على مدخل المقبرة ... ويبدو أنَّ الأخرس الصغير شاهدهم وهم يسرقون، ولسوء حظه أنَّهم شاهَدُوه ... فأمسكوا به، ووضعوه في مكان ما وهددوه بالقتل إن هو هرب أو أبلغ الشرطة ... ولكنه بطريقة ما استطاع الهرب ... ثم وصل إلى المعادي وهم يُطاردُونه ... واختفى تحت المقعد الحجري حتى عثرنا عليه ... وفقدوا هم أثره ...

وسكت «تختخ» لحظات ثم مضى يقول: وعندما عثرنا عليه وأعلنَّا عن وجوده اتصلوا بي ليعرفوا مَن في المنزل ... فلما عرفوا أنني وحدي اقتحموا المنزل لاستعادة الولد الذي استطاع الفرار ... وسقط منديل أحدهم في أثناء الصراع ... وهو المنديل الذي أمدني

بمعلومات عن طريقها كونت وجهة نظري ... فإن الحركات والإشارات التي قام بها الأخرس كانت تَعني بالضبط أنهم يقطعون اللوحات من المقبرة، وأنهم خمسة أشخاص ... وعندما شاهد الأخرس الكارت الذي أرسَلَه أبي لي ... وشاهد اللوحات المرسومة حاول إفهامي بما رأى ...

عاطف: إذن فالألوان التي على المنديل من ألوان المقبرة.

تختخ: طبعًا ... إن الرجل وهو يلصق اللوحات الزَّائفة انكسر بعضها وتفتت وتلوثت أصابعه بالألوان فمسحها بمنديله ... وعثرنا نحن على المنديل، وأكد المعمل الجنائي أنَّ الألوان من الأكاسيد التي تُستعمَل في الصباغة.

عاطف: ولكن اللوحات كاملة.

تختخ: إنَّ الرسوم داخل المعبد كثيرة جدًّا ... ونحن لم نرها كلها ... وهي الفكرة التي خطرت لي ... إنهم يصنعون لوحات مزيفة ويضعونها في مكان اللوحات المسروقة ... ومما يؤكد ذلك أنني عثرت على آثار أتربة متخلفة من عملية القطع بجوار الجدران.

محب: ولماذا لا نبلغ الشرطة الآن؟

تختخ: إن تدخل الشرطة سيدفع رجال العصابة إلى الهرب ... وعلينا أولًا أن نعرف كيف يدخلون إلى المقبرة مع وجود الحراس ... إنهم بالطبع يَدخُلون ليلًا ويقومون بالسرقة ليلًا ... فإذا شاهدناهم استطعنا إبلاغ الشرطة في الوقت المناسب.

غابت الشمس وهبط الظلام على وادي الملوك ... وسَادَ صمتٌ رائعٌ هذه السَّاحة الواسعة التي تضم أكبر مجموعة من الآثار المصرية ... بل من الآثار في العالم كله ... وظل الأصدقاء رابضين مكانهم حتى أظلمت الدنيا تمامًا ... ثم قال «محب»: هيا بنا.

وتحرك الثلاثة متجهين إلى مقبرة «سيتي» ... واختاروا مكانًا بعيدًا يرقبون منه مدخل المقبرة التي وقف أمامها عدد من الجنود المسلَّحين.

قال «عاطف»: من غير المعقول أن تدخل العصابة من الباب مع وجود هؤلاء الحراس.

وجلس الثلاثة صامتين يفكرون ... من أين تدخل العصابة؟

وقال «مُحِبٌّ»: لقد نسينا الرجل الذي حاول دفعك من فوق السلم ... لم نبحث عنه عندما نزلنا إلى المقبرة.

تختخ: لقد راقبتُ كل الموجودين ... لم يكن بينهم من يُمكن الاشتباه فيه ... فهم جميعًا من السياح الأجانب.

ومضى الوقت واشتدَّ البرد دون أن يظهر أثر لأحد يسير في المنطقة المُوحِشة بين المقابر ... ونظر «تختخ» إلى ساعته وكانت قد تجاوزت منتصف الليل، وأحسَّ بالجوع، وأدرك

أنَّ زميليه يشعران بما يشعر، لهذا قال: يبدو أنهم لن يأتوا الليلة ... أو أنهم انتهوا من سرقاتهم وجئنا بعد فوات الأوان.

محب: وماذا ترى؟

تختخ: سنعود إلى البرِّ الشرقي ونقوم ببعض الاستفسارات، فقد نصل إلى معلومات.

وبدأ الثلاثة التحرك، وكانت المشكلة التي تشغل بال «تختخ» ... هي وجود قارب في مثل هذه الساعة لينقلهم عبر النيل إلى البر الشرقي ... وعندما وصلوا إلى شاطئ النهر لم يجدوا — كما توقع — قاربًا واحدًا ... ووقفوا في الظلام يحدقون في الشاطئ الآخر، وبرغم الموقف الصعب قال «عاطف»: لم يَعُد أمامنا إلا السباحة إلى الشاطئ برغم قسوة البرد ... فإنني أكاد أموت جوعًا.

ولدهشة «عاطف» الشديدة قال «تختخ»: لم يَعُد أمامنا إلا تنفيذ هذا الاقتراح.

وبدءوا يخلعون ملابسهم ثم حملوها فوق رءوسهم، وأخذوا يعبرون النهر البارد.

في صباح اليوم التالي، ذهب الثلاثة لزيارة المفتش «مندور» الذي رحب بهم عندما علم أنهم أصدقاء المفتش «سامي» ... وروى «تختخ» للمُفتش كل الأحداث التي مروا بها ... وكان المفتش ينصت بانتباه، ولكن لاحظ الثلاثة أنه كان يُخفي ابتسامة سخرية وإشفاق ... فقد بدا له أنَّ ما يقولونه مضحك ... فلم يكن يعرف قيمة هؤلاء المغامرين.

وعندما انتهى «تختخ» من روايته قال المفتش: قد يكون لهذه المغامرات أيُّ تفسير إلا سرقة الآثار من مقبرة «سيتي»، فذلك شيءٌ مستحيلٌ ... هناك حراسة في كل مكان ... والتجول ليلًا ممنوع إلَّا لأفراد البعثات الأثرية، والعمَّال الذين يقومون بالحفر في المنطقة.

قال «تختخ»: وهل هناك بعثات تعمل الآن؟

المفتش: نعم ... هناك بعثة العالم الألماني دكتور «كارل فون هيم» ...

قال «تختخ»: شكرًا لإنصاتك يا سيدي المفتش ... وقد نَلتقي مرة أخرى.

ردَّ المفتش: ذلك يَسُرُّني.

وانصرف المغامرون الثلاثة ... وقال «تختخ» قد تكون السرقة من العمال الذين يقومون بالحفريات الجديدة.

وبعد ساعة كانوا في البر الغربي يسألون عن موقع بعثة الدكتور «كارل» ودلَّهم أحد المواطنين على مكان البعثة ... واقتربوا منها على حذر، ثم وقفوا خلف تل يراقبونها.

قال «تختخ»: ألم تُلاحظوا شيئًا؟

محب: ماذا؟

تختخ: إنها قريبة من مقبرة «سيتي».

محب: هل تعني ...؟

تختخ: طبعًا!

وفهم «عاطف» ما يقصد «تختخ» و«محب».

كان عدد من العمال يحفر ... وبعض العلماء الألمان ينزلون ويخرجون من الفتحة الكبيرة في الأرض.

وقال «تختخ»: هيا بنا ... سنعود في الليل.

وعندما هبط الظَّلام كان الثلاثة يستأجرون قاربًا نقلهم إلى البر الغربي ... وقال «تختخ» للبحار الصغير: إذا انتظرتنا حتى نعود ... فسوف نُضاعف لك أجرك، ووافق البَحَّار ... وانطلق الثلاثة مُسرعين إلى حيث منطقة حفريات البعثة الألمانية، ولم يجدوا هناك سوى حارس واحد ... واتفق الثلاثة على خطة بسيطة لإبعاد الحارس يقوم بها «عاطف»، على حين يتسلَّل «تختخ» و«محب» إلى الحفرة ليريا ما فيها.

وتمَّ تنفيذ الخطة، وسمع الحارس صوت استغاثة فقام مُسرعًا إليها ... وكلما اقترب منها ابتعدت ... كان «عاطف» يقوم بدور المُستغيث ببراعة ... وفي والوقت نفسه كان «تختخ» و«محب» قد نزلا إلى المقبرة ... وسرعان ما وجدا نفسيهما ينزلان سلالم مُعلَّقة من الخشب ... وعلى ضوء بطاريتهما ظلا يسيران في ممرات طويلة لم يجدا فيها شيئًا من الآثار، حتى وصلا في النهاية إلى باب بسيط من الخشب ... دفعه «تختخ» بيده فإذا به يؤدي إلى ممرٍّ طويل ... كان واضحًا أنَّ الممرَّ من ممرات المقابر ... وسرعان ما وجدا نفسيهما في ممر مسدود ... ولكن «تختخ» اقترب من نهاية الممر، وأخذ يعبث بالصخور فظهرت فتحة تتَّسع لمرور رجل ... ومر «تختخ» منها وتبعه «محب»، ووجدا نفسيهما في مقبرة «سيتي» وقال «تختخ»: إنه سرداب خفي قام العمال بحفره من غير أن يعرف العُلماء الألمان ذلك ... إنه متفرِّع من السرداب الأصلي.

كانت لحظة مُثيرة ... ووقف المغامران، وقد توترت أعصابهما ... فقد سمعا في جوف السرداب المظلم صوت أقدام تقترب مُسرعة ... وأصاخا السمع وأخذت الأقدام تقترب وتقترب وتقترب وهمس «تختخ» في أذن محب: التصق بالجدار!

والتصق «محب» بالجدار الأيمن و«تختخ» بالجدار الأيسر للنفق، ووقفا صامتين ... وقلباهما يدقان بسرعة ... وبرغم برودة الجو ... كان العرق ينحدر على وجهيهما.

وصل صوت الأقدام إلى قرب الباب الخشبي ثم توقف، ثم ظهر شعاع من الضوء الرفيع يشق الظلمة ... وبدأ الشعاع يدور حتى اقترب من قدم «تختخ» ولم يعد هناك شك في أنه أحد رجال العصابة ... وأنه عندما وجد الفتحة الصخرية أدرك أن بعض الغرباء قد تسلَّل إلى السرداب!

انبثق شعاع الضوء، وأخذ يتجول على جدران السرداب ... وفجأة سقط على ساق «محب» وسمع «تختخ» شهقة صدرت من الرجل ... وأدرك أنه سيُهاجم «محب» ... وقفز «تختخ» إلى الأمام، ووجه لكمة لوجه الرجل في الظلام، ولكن تقديره خاب وطاشت اللكمة ... وسقط «تختخ» على وجهه، وانحنى الرجل وهوى بالبطارية التي يَحملها على رأس «تختخ» ... ولكن «تختخ» تدحرج سريعًا، ثم أمسك بساقي الرجل وجذبه بشدة فسقط على الأرض ... والتحما في صراع رهيب ... ولكن «محب» تدخل بسرعة ... واستطاع المغامران أن يشلا حركة الرجل ... وألقياه على وجهِه وربطا يديه في قدميه بقميصه بعد أن مزقاه.

وأطلق «تختخ» شعاعًا من الضوء على وجه الرجل ... وكان وجهُه وجهًا قاسيًا شديد السمرة، تلمع فيه عينان مُرعبتان ...

وقال «تختخ»: ألم أقل لك ... إنَّ بعض العمال ينزلون بدعوى البحث عن الآثار فيسرقون! هيا بنا نُخطر المفتش «مندور» وليقبض على هذا الرجل، وعن طريقه سيعرف بقية أفراد العصابة.

وعادا من الطريق نفسه وصعدا إلى السطح ... ولم تمض سوى ثوان قليلة على مغادرتهما الحفرة حتى سمعا صوت الرجال يتحدَّثون عن نقل بعض الآثار من مكانها.

قال «تختخ»: إنهم اللصوص.

وأسرعا إلى شاطئ النيل ... وحسب الاتفاق كان «عاطف» هناك، وسرعان ما أقلع القارب متجهًا إلى الشاطئ الشرقي للأقصر ... ولم تمض نصف ساعة حتى كان المفتش «مندور» أمامهم يسمع ما حدث وهو في غاية الدَّهشة ... ولكن أمام الوقائع المُذهلة لم يكن يملك إلا القيام على رأس قوة من الرجال للقبض على أفراد العصابة.

بعد أيام قلائل كان المغامرون الخمسة يَجلسُون بجوار فراش الأخرس الصغير ... كانت صحته قد تحسَّنت ... وكانوا يعرضون عليه الجرائد التي نشرت قصة القبض على عصابة الآثار ... والتي اتضح أن أفرادها من المجرمين الخَطِرين الذين اندسوا في البعثة.

وابتسمت «لوزة» وهي تُشير إلى الأخرس، ثم تُشير إلى الجرائد مُحاوِلة أنْ تقول: إنك أنت الذي كشفت سِرَّهم.

وكان الأخرس يبتسم في سعادة … وهو يُشير إليهم مُحاولًا أيضًا أن يقول: بل أنتم أصحاب الفضل.

كانت المفاجأة الأخيرة في هذه المغامرة هي ظهور أسرة الأخرس … وهي أسرة فقيرة من جنوب الصعيد … مكوَّنة من الأب والأم وأخت للأخرس … وكان الأب يعمل أجيرًا في بعض الأعمال غير المنتظمة.

وعندما سمع والد «محب» بقصة الأخرس قام بإلحاق الأب بأحد الأعمال بأجرٍ مُجزٍ، وقام بإلحاق الأخرس بإحدى مدارس الصمِّ والبكم، فقد ثبت طبيًّا أنه يُمكن شفاؤه بمرور الوقت.

وهكذا تحققت النهاية السعيدة لهذا الولد الذي كان سببًا في كشف عصابة من أخطر عصابات سرقة الآثار.


هنداوي